قَيْدُ الأَوَابِد

شَذَرَاتٌ فِي الدِّينِ وَالفِكْرِ وَالأَدَب

دار البشير
للثقافة والعلوم

اسم الكتاب: قَيْدُ الأوَابِد.. شَذَرَاتٌ فِي الدِّينِ وَالفِكْرِ وَالأَدَب

التأليف: الدكتور أسامة شفيع

موضوع الكتاب: فكر

عدد الصفحات: 232 صفحة

عدد الملازم: 14.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 1777 / 2016

الترقيم الدولي: 5 - 531 - 278 - 977 - 978 : ISBN

التوزيع والنشر

دَارُ الْبَشِيرِ لِلثقافةِ والعُلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01012355714 - 0115280653

1437 هـ

2016م



قَيْدُ الأَوَابد

شَذَرَاتٌ فِي الدِّينِ وَالفِكْرِ وَالأَدَب

الدكتور أسامة شفيع

دَارُ البَشِير
لِلثقافةِ والعُلُوم

"كُلُّ كَلامٍ يَبْرُزُ، وَعَلَيْهِ كُسْوَةُ الْقَلْبِ الّذِي مِنْهُ بَرَزَ"

حكمة عطائية

بَيْنَ يَدَيِ الكِتَابِ

بقلم الدكتور محمد متولي

الأصل في كتابة مقدمات الكتب أنها تنطلق من شعور بالإعجاب والتقدير والمحبة للكتاب وصاحبه، إذ لا يُتَصَوَّر أن يقدم المرء لكتاب لم يعجبه موضوعه ولم يرقه أسلوبه، والحق أن هذه المقدمة تنطلق من وفرة وافرة من هذا الشعور، فالدكتور أسامة شفيع، صاحب هذا الكتاب، صديق كريم، أتيحت لي معرفته منذ سنوات، وكان له فيما مضى من حياتي أعظمُ الأثر، توجيهًا ونصحًا وإرشادًا، حتى غدا وجودُه فيها جزءًا عزيزًا أصيلًا منها.

وقد يوحي هذا البوح المبكر بأواصر الصداقة القديمة بيننا بأن شهادتي له في هذا التقديم تحمل أدلة جرحها، وتحتضن بذور الشك فيها، لكنني أدفع هذه الشُّبَه والظنون، بكلام لطه حسين، ساقه في مقام كهذا المقام، ولاقي في النفس رضىً، وهو معبر خيرَ تعبير عما أستشعره وأؤمن به إذْ أُقدِّم لهذا الكتاب، وهو أن من خيانة الأصدقاء أن تُتَّخَذَ صداقتهم وسيلةً إلى جحود ما لهم من حق، وإخفاء ما لهم من

فضل؛ خشيةَ أن يُتهم المرء بالإغراق في الثناء، أو يوصفَ بالمجاملة والمحاباة وعدم الإنصاف. فلا شك أن معاملة الأصدقاء على هذا النحو خيانةٌ منكرة وظلم قبيح، وفيها في الوقت نفسه شيء من اتهام النفس، والإسراف في سوء الظن بها. وإذا كان الإنصاف يقتضي ألا يغمط المرء أصدقاءه حقوقهم، فإن من الظلم أن يثني على من لا يستحق الثناء، أو أن يغلوَ في حمد من لا يستحق الحمد إلا بمقدار. والخير في الجملة ألا يصدر الناقد- فيما يرى من رأي- عما يقول الناس فيه أو ما يتوقع أن يقولوا، وإنما هو مدين لنفسه ولقرائه، بما يعتقد أنه الحق الخالص. وإني لمنتهج- في تقديم هذا الكتاب- هذا النهج الذي ارتضيته؛ فلن أقول فيه وفي صاحبه إلا ما علمت أنه الحق.

ولعل هذه الصداقة التي بحت بها ابتداء تُحتِّم أن أُلِمَّ بأطراف من آثارها، قبل الحديث عن الكتاب، ذلك أنني عرفت أسامة منذ كنت طالبًا بدار العلوم، وكان هو معيدًا من الوجوه الشابة البارزة. اقتربت منه فراقني فيه ظَرفُه وذكاؤه، وحدةُ قريحته وسعة ثقافته؛ حتى لقد كنت أجله إجلال الأساتذة الكبار.

وشاءت الأقدار أن تتوطد العلاقة بيننا، وأن تربطني به صداقة حميمة لا انفكاك لها بإذن الله. كانت هذه الصداقة استجابة لداعية تلاقي الأرواح

التي هي جنود مجندة، تعارفت فتآلفت. ثم كانت زياراتٌ متبادلة، فزرته في بيته في مصر، وزرته كذلك في فرنسا إبان إقامته هناك لإنجاز أطروحته للدكتوراه؛ فلقيني في بيته الفرنسي بمثل ما كان يلقاني به في بيته المصري من الكرم والحفاوة. لكن أشد ما يجتذبك في بيت أسامة عنايته بالكتب، فكما أن في بيته بمصر مكتبة عظيمة، تروقك سعةً وتنوعًا وامتلاءً، فإن اهتمامه بالكتب في فرنسا كذلك كان اهتمامًا ظاهرًا؛ وإني لأزعم أنني ما رأيت فيمن عرفت من الدراعمة من هو أشدُّ شغفًا بالكتب وأحرصُ على اقتنائها من أسامة. حتى إننا- نحن أصدقاءه- كانت تُلم بنا الضائقة المالية ويصدر الكتاب الجديد، فنحجم عن شرائه، فيحثنا على الشراء، ويدفعنا إليه بدافع المحبة دفعًا قائلًا: "تذهب الأزمة ويبقى الكتاب!" فتَحَقَّقَ لنا بنصيحته تلك خير كثير. وكان يُكثر التمثل في ذلك بمقولة أظنها للعقاد، وهي أنه كانت تأتيه الكتب الجديدة ساخنة من المطابع!

ومن طريف ما يروى في هذا السياق أنني زرته ذات مرة، وكان أن قدم لي طبقًا من الحلوى، فانكفأ الطبق على كتاب له كان بيدي؛ فأخذني قلقٌ عظيم؛ خشيةَ أن يصيب الكتاب مكروهٌ، فهدّأ من روْعي، ورفع الحلوى برفق عن غلاف الكتاب، فإذا هو كما هو نظيف لم يمسسه سوء، فابتسم مداعبًا وقال: لا تقلق يا صديقي، فكل شيء في بيتنا يعرف قدر العلم!

فما ظنك- أيها القارئ الكريم- برجل يعرف كلَّ شيء في بيته قدرَ الكتب؟! ألا ترى في ذلك دليلًا على عقله، ومرآة تنعكس عليها ثقافتُه وطبيعة تكوينه وبناء نفسه، فهو وإن لم يزل في شرخ الشباب فقد أمضى خمسة وعشرين عامًا من عمره بين الكتب، كان لها أعظم الأثر في صفحات هذا الكتاب الذي يحمل عنوان "قيد الأوابد"، كأنما يشير إلى بيت امرئ القيس في معلقته الشهيرة:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ

فالأوابد في البيت هي الوحوش، والدلالة هنا مجازية، فهي تطلق على الوحش من الحيوان وكل فذ طريف من الكلام، فأوابد الأشعار ما لا مثيل لها، وأوابد الدنيا عجائبها. وإذا كان فرس امرئ القيس من القوة والسرعة بحيث يقيد الوحوش، فهذا الكتاب مثله في تقييد طريف الكلام ومعجب الأفكار.

والكتاب لا يعالج موضوعًا واحدًا من موضوعات العلم، وإنما هو أشتات مجتمعات من اللطائف والإشارات. وقد سار مؤلفه فيه على سنن كتب الأدب العربي القديم، في الجمع بين المتفرقات من الفوائد واللطائف والطرائف والأخبار، حتى إنك لتستشعر عند قراءته نَفَسَ الجاحظ وابن قتيبة وأبي حيان وأضرابهم، فهو نمط من التأليف لا تخطئه عين اللبيب، تجد فيه

من المتعة والفائدة مثل ما تجد حين تتنقل بين صفحات "البيان والتبيين"، و"عيون الأخبار"، و"العقد الفريد" وغيرها من رائق كتب التراث.

ولو أردنا بلورة هذه الأشتات في أنماط جامعة، لرأينا أحاديث ووقفات مع البلاغة والفصاحة والبيان، وشذرات من الأدب واللغة ونقد الشعر، والموازنة بين الأشعار، وحشد الحكم واللطائف لجامع بينها، ونظرات في القرآن وبلاغته، ولطائف التفسير، وإشارات الصوفية، والحكم والمواعظ، والملح الطرائف، والمطارحات الشعرية، وترجمة الشعر والنثر عن الإنجليزية والفرنسية، وشيء من فن الرسائل، والمثاقفات، وفن المقامة، وغيرها.

لقد تنوعت موضوعات الكتاب وقضاياه على هذا النحو دفعًا للملل والسآمة، حتى إن صاحبه لو قال فيه مقالة الجاحظ في خطبة الحيوان لما أبعد؛ وذلك حين قال:

"إنِّي أوشِّح هذا الكتابَ وأفصِّلُ أبوابَه، بنوادِرَ من ضُروبِ الشِّعر، وضروبِ الأحاديث؛ ليخرجَ قارئُ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل؛ فإنِّي رأيتُ الأسماعَ تَمَلُّ الأصواتَ المطْرِبَة والأغاني الحسنة والأوتارَ الفَصيحة، إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلَّا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة".

وعلى هذا النحو نفسه جاء هذا الكتاب؛ يتنقل بين الأفكار والمسائل، ويخرج من جِدٍّ إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة، وهو نمط يتفق مع روح العصر المتوثبة، وطبيعة القارئ المعاصر، ذلك القارئ الملول العَجِل، الذي غدا يرضى بالقصة القصيرة والقصة الومضة، من بين فنون الأدب المعاصرة، وتراه كذلك تنعطف نفسه إلى الشذرات السريعة واللمحات الخاطفة، التي تستميله وتهدهد مشاعره، وتكسبه المعرفة في غير ما جهد ولا معاناة.

ومن بين ما تطرب له من الشذرات في هذا الكتاب، تذوق المؤلف للأبيات الشعرية المفردة بنهج لطيف ومسلك دقيق، وذلك نحو تحليله لقول ابن الرومي يصف الأرض مقدمَ الربيع:

تَـبرَّجَـتْ بَعْدَ حَيَاءٍ وَخَفَرْ تَـبَّرُجَ الأُنْثَى تَصَدَّتْ للذَّكَرْ

فإنك تطرب لوقوفه على الفروق الدلالية بين الألفاظ، وكشفه عن جذور المعنى وأطيافه، وجلائه للوازمه التعبيرية.

ومن طريف ما تقرأ له في إطار نقد الشعر كذلك مقال "الْجَمَالُ الذَّاتِيُّ وجَمَالُ المُنَاسَبَة"، وحديثه عن شياطين الشعراء، وتفسيره إيثار العرب أن يكون للشعراء شياطين، لا عرائس كما فعلت اليونان. ونظراته في قصيدة أبي صخر الهذلي، وتأويله لمقطوعة شعرية للأعشى ميمون بن قيس، وغير

ذلك. ويتخلل هذه المسائل كلها وقفات ولطائف تفسيرية معجبة لبعض آيات القرآن، تناول فيها بَلاغَةَ العَطْفِ، وبَلَاغَةَ الالْتِفَاتِ ونحو ذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب لا يخلو في معالجة بعض مسائله من نَفَسٍ صوفي ظاهر؛ حيث تظهر المعارف الصوفية الثرة لمؤلفه، وتتجلى قدرته التأويلية في عدد من الخواطر منها مقالاته: "ثمرة المحبة"، و"يا أنا"، و"العِلْمُ كُرِّيّ"، و"لَوْنُ الماءِ لَوْنُ إِنَائِه"، بل إنه خَلَع من نَفْسِه الْمُشْرَبَةِ بالتَّصوُّف على بيتين غَزِلَيْنِ لشاعر مُمْعِنٍ في الحِسِّ هو نزار قباني، يقول فيهما:

فَإِذَا وَقَفْتُ أَمَامَ حُسْنِكَ صَامِتًا فَالصَّمْتُ فِي حَرَمِ الجَمَالِ جَمَالُ
كَلِمَاتُنَا فِي الحُبِّ تَقْتُلُ حُبَّنَا إِنَّ الحُرُوفَ تَمُوتُ حِينَ تُقَالُ

ليقارن مقارنة معجبة بينهما وبين مقالة الصوفية: "المشاهَدَةُ تُورِثَ البَهْت"، ثم ينتهي إلى تفضيل المقولة الصوفية على بَيْتَيْ نزار، لأسباب اقتنصها بعين الخبير وقلب السالك.

ومن طريف ما تقرأ له كذلك نماذج من فن المقامة، يعالج فيها بعض القضايا الطريفة المعاصرة، لكن معالجته لها لا تخلو من ذلك النفس التراثي الأصيل، فتراها تحمل سمات المقامة العربية القديمة من حيث فحولة اللغة، والميل إلى الإغراب، وتضمين الأشعار.

والحق أن مؤلف الكتاب وإن كان لا يعد نفسه من الشعراء، ويرى أنه أشد ميلًا إلى فن الكتابة؛ فإن قدرته على نظم الشعر لا تقل عن مهارته في كتابة النثر، حتى إنك لتقرأ له بعض المقطوعات والأبيات المفردة، فتكاد تعزوها- إن جهلت نسبتها إليه- إلى بعض شعراء العربية في عصورها الزاهرة؛ لفرط ما تلحظ فيها من إحكام الصياغة، والامتلاء بالحكمة، وتمكن المعنى.

ويضاف إلى بناء الكتاب على طريقة كتب التراث في تفرق موضوعاتها ملمح آخر، يظهر في صوغ كثير من عناوين مسائله على طريقة القدماء في السجع الحسن والازدواج وحسن التقسيم، فتقرأ مثلًا "طَبَائِعُ الحَيوَانِ وَخَلَائِقُ الإِنْسَان بَيْنَ صِدْقِ الفِطْرَةِ وَعُمْقِ الْفِكْرَة"، و"عَبْقَرِيَّةُ اللِسَانِ وَعَبْقَرِيَّةُ الْبَيَان"، وقصيدة "السِّحْرُ الحَلالُ فِي لَحنِ ذَوَاتِ الدَّلال". ومن طريف ما تقرأ كذلك منظومة قصيرة طريفة بعنوان "إِتْحَافُ الغَاوي بِشَيْءٍ من النَّحْوِ الفَرنسَاوي"، وهو نمط من التأليف فريد، اشتهر به بعض من ثقفوا الثقافة الغربية مع تغلغل جذورهم في الثقافة والتراث العربي، من مثل ما كتب أحمد فارس الشدياق، وهو رجل موغل في التراث شديد الولوع به، فقد كتب "الباكورة الشهية في نحو اللغة الإنكليزية"، و"سند الراوي في النحو الفرنساوي".

ومن ولوع صاحب الكتاب بالتراث ورجاله كذلك؛ أنك تجد بين عناوين كتابه مسائلَ نَصّ فيها على مباراته العلماء الأقدمين، وجريه في مضمارهم، فتقرأ "مباحثة مع الزمخشري" وأخرى مع "أبي الفتح عثمان بن جني"، و"بحث على طريقة الشيخ عبد القاهر" و"خَاطِرَةٌ لَيْلِيَّةٌ فِي شَرْحِ كَلِمَةٍ جَاحِظِيَّة" وغير ذلك. ولا شك في أن هذه المباحثات إنما كانت بسبب من طول صحبة المؤلف لإنتاج هؤلاء الشيوخ الكبار.

ولن يخفى على قارئ الكتاب علوُّ اللغة وانتقاء الألفاظ، ولطف المسلك في استبطان المعاني. وذلك كله من أمارات طول صحبة كتب التراث والافتتان بها، وهو دليل على كثرة الاطلاع والإلمام بأطراف من العلم لا تجتمع إلا لكل قارئ بحاثة، أجال الطرف وأطال النظر، حتى نضج واستعجم عوده؛ فلم يعد يقتصر دوره على المطالعة وتكوين الثقافة الذاتية، وإنما يمتد إلى ما وراء ذلك، يتمثل ما يقرأ، ويحسن الاستنباط والاستدلال والاستشهاد، ويسهم في إنتاج العلم. ثم هو يحاول– بهذا الكتاب– أن يلفت القارئ المعاصر إلى تراثه ويغريه به، ويطلعه على نمط من اللغة مستقى من معينها الأول، وكأنما يحاول استنقاذ العربية مما أصابها اليوم، من انحطاط الذوق الذي يضرب الثقافة العربية بعامة، ويدك معاقلها في كل مكان.

وتجدر الإشارة إلى أن علو لغة الكتاب، ونزوعها الشديد هذا إلى التراث، وتلبسها روحَ الأقدمين، وإن كانت سمات نمتدحها فيها، فإن من شأنها أن تقصر جمهور هذا الكتاب على محبي كتب التراث العربي، من طلاب المعرفة الحقيقية، الباحثين عن الجواهر واللباب لا الوقَّافين عند القشور، فأغلب الظن أنه لن يقرأه إلا من ثقف ثقافة خاصة، وعلا كعبه في ميدان اللغة والأدب والبلاغة والبيان.

وتجدر الإشارة في هذا السياق كذلك إلى أن المؤلف وإن ثقف الثقافة الغربية مدة طويلة، يعرف الإنجليزية، ويقرأ بالفرنسية ويكتب بها ويحاضر، فإن ذلك كله لم يطغَ على ثقافته الأولى، ولم يسلبه بهاء عربيته كما كان الشأن مع كثيرين ممن سلكوا هذا الطريق قبله، وإنما تجده يمزج مزجًا فريدًا بين هذه الثقافات التي اجتمعت في تكوينه، وكان لكل منها في بناء عقله نصيب وافر، حتى ليصدق عليه في هذا البناء العقلي الطريف قول العقاد فيمن أطلق عليهم "المدرسة الدرعمية"، في معرض تقديمه لديوان علي الجارم: "فالدرعمي لغوي عربي سلفي عصري، ولكن على منهج فريد في بابه بين مناهج السلفية والمدارس الإفرنجية، وبين مناهج المحافظة والتجديد، ومناهج الابتداع والتقليد".

وبعد أيها القارئ الكريم، فهذا كتاب يستدعي تراثنا العربي في

ثوب جديد، وكأنه يبتعث جسده وينفخ فيه الروح، ليحيا بيننا بعد قرون، ولست أريد أن أفسد عليك متعة السياحة بين دفتيه بذكر مزيد من تفاصيله؛ وإنما أسلمك إليه على متن مركب أنت ربانها، لتنعم بالرحلة وتنتشي بمخر العباب. ولا تأس إذا ما اضطرك مؤلفه مرات إلى مضايق العلم ودقائقه، وحملك على الغوص وراء المعاني، فيصيبك من النصب وكد الذهن حين تقرأ مثل الذي أصابه حين كتب. وسواء وافقته في بعض رأيه أو خالفته فإنك لا تملك إلا أن تكبره، وتقر بأن عقلًا كبيرًا يقف وراء هذه الأفكار يقلبها ويسبر أغوارها، يحدوه منطقُ العلم، وتُسعدُه قوة الحجة، وتَزِينُه روعةُ القلم.

محمد سيد أحمد متولي

مدينة السادس من أكتوبر

الأربعاء

١٤ من جمادى الآخرة ١٤٣٧

الموافق ٢٣ من مارس ٢٠١٦

المقدِّمة

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يَنْبَغِي لِجَلالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، مِلْءَ السَّمَواتِ وَمِلْءَ الأرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شَاءَ رَبُّنَا مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ. وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، عَبْدِاللهِ ورَسُولِه، وعَلَى آلِهِ الأَطْهَارِ، وَصَحْبِهِ الأَخْيَارِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

وَبَعْدُ، فَهَذِه أَشْتَاتُ أَفْكَارٍ لَمْ أَرُمْ إِبَّانَ كِتَابَتِهَا أَنْ تَضُمَّهَا دَفَّتَا كِتَابٍ، وَلا دَارَ ذَلِكَ بِخَلَدِي، لَوْلا أَنَّها تَكَاثَرَتْ مَعَ الأَيَّامِ، بَلْ مَعَ الأَعْوَامِ، وَتَنَوَّعَتْ فُنُونًا، فَانْشَعَبَتْ بِهَا جِهَاتُ القَوْلِ، فَهِيَ تَارَةً تَلُوحُ فِي مُسُوحِ نَاسِكٍ صُوفِيٍّ، وَتَارَةً تَتبَدَّى فِي صُورَةِ شَاعِرٍ عُذْرِيٍّ، وَطَوْرًا تَتَرَدَّى بِبُرْدَةِ النَّقْدِ، وَطَوْرًا تَنْزِعُ مَنَازِعَ الفَلْسَفَةِ وَالحِكْمَةِ، وَهِيَ فِي ذَلَكَ تَتَقَلَّبُ بَيْنَ هَزْلٍ وَجِدٍّ، وَأَخْذٍ وَرَدٍّ، وَعِرْفَانٍ وَجَحْدٍ. وَقَدْ قِيلَ: "شِعْرُ الرَّجُلِ قِطْعَةٌ مِنْ كَلامِهِ، وَظَنُّهُ قِطْعَةٌ مِنْ عِلْمِهِ، وَاخْتِيَارُهُ قِطْعَةٌ مِنْ عَقْلِهِ"، وَفِي هَذَا المَجْمُوعِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ، فِيهِ مِنْ شِعْرِي، وَمِنْ ظَنِّي، وَمِنَ اخْتِيَارِي،

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: فِيهِ مِنْ كَلامِي، وَمِنْ عِلْمِي، وَمِنْ عَقْلِي، فَهْوَ لِذَلِكَ قِطْعَةٌ مِنْ نَفْسِي، وَحَسْبُكَ بِهَذَا دَاعِيَةً إِلى إِثْبَاتِهِ فِي الطِّرْسِ، صَوْنًا لَهُ مِنْ عَوَادِي الزَّمَانِ وَتَقَلُّبِ الحَدَثَانِ، وَمِنْ هَذَا الوَجْهِ سَمَّيْتُهُ "قَيْدُ الأَوَابِدِ".

وَمَنْ ذَا الَّذِي لا يَشْتَهِي أَنْ يُسَجِّلَ شَيْئًا مِنْ صُورَةِ نَفْسِهِ؟! حَتَّى إِذَا عَلَتْ سِنُّهُ "وعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُهْ"، فَاسْتَبَدَّ بِهِ الحَنِينُ، أَوْ مَارَ الشَّوقُ، أَوْ مَاجَتِ الذِّكْرَى، قَامَ إِلى أَوْرَاقِهِ الْقَدِيمَةِ، فَجَعَلَ يُقَلِّبُ فِيهَا طَرْفَهُ وَيُجِيلُ فِيهَا نَفْسَهُ، لِيَمْلأَ مِنْ مَوْفُورِ شَبَابِهِ الغَابِرِ خَوَاءَ شَيْبِهِ الحَاضِرِ؛ لَعَلَّهُ يَجِدُ فِي ذَلِكَ عَزَاءً وَأُنْسًا، فَلا يُدْرِكُهُ مَا أَدْرَكَ الجَوَاهِرِيَّ حِينَ قَال فَبَكَى وَبَكَّى:

آهِ يَا شَيْخُ!

وَمَنْ يُدْنِيكَ مِنْ عَهْدِ الشَّبَابْ؟!

أَغْلَقَتْ مِنْ دُونِهِ سُودُ اللَّيَالِي..

أَلْفَ بَابْ!

لا تَحُمْ كاللِّصِّ مَذْعُورًا..

وَكَالْوَحْشِ بِلا ظُفْرٍ وَنَابْ

أَنْتَ لا تَسْطِيعُ أَنْ..

تَقْطِفَ عُنْقُودًا تَدَلَّى بِالعَرِيش،

أَلْفُ كَفٍّ للشَّبَابِ الحُلْوِ..

أَوْلَى مِنْكَ فِي..

هَذَا الشَّرابْ

آهِ.. يَا شَيْخُ لَو اسْطَعْتَ..

رُجُوعًا للشَّبَابْ!

قَدْ جَمَعْتُ- إِذًا- هَذِهِ الشَّذَرَاتِ لِنَفْسِي، فَلَمْ أَرَ- بَادِيَ الرَّأْيِ- أَنْ أَقُومَ عَلَيْهَا قِيَامَ أَصْحَابِ الحَوْلِيَّاتِ مِنَ القُدَمَاءِ عَلَى قَصَائِدِهِمْ، يُحَكِّكُونَهَا وَيُرَدِّدُونَ أَبْصَارَهُمْ فِيهَا، وَلا عَمِلْتُ بِوَصَاةِ الجَاحِظِ حين قال:

"وَيَنْبَغِي لِمَنْ كَتَبَ كِتَابًا أَلا يَكْتُبَهُ إِلا عَلَى أَنَّ النَّاسَ كُلُّهُمْ لَهُ أَعْدَاءٌ، وَكُلُّهُمْ عَالِمٌ بِالأُمُورِ، وَكُلُّهُمْ مُتَفَرِّغٌ لَهُ؛ ثُمَّ لا يَرْضَى بِذَلِكَ حَتَّى يَدَعَ كِتَابَهُ غُفْلًا، وَلا يَرْضَى بِالرَّأْيِ الفَطِيرِ؛ فَإِنَّ لابْتِدَاءِ الكِتَابِ فِتْنَةً وَعُجْبًا، فَإِذَا سَكَنَتِ الطَّبِيعَةُ وَهَدَأَتِ الحَرَكَةُ، وَتَرَاجَعَتِ الأَخْلاطُ، وَعَادَتِ النَّفْسُ وَافِرَةً، أَعَادَ النَّظَرَ، فَيَتَوَقَّفُ عِنْدَ فُصُولِهِ تَوَقُّفَ مَنْ يَكُونُ وَزْنُ طَمَعِهِ فِي السَّلامَةِ أَنْقَصَ مِنْ وَزْنِ خَوْفِهِ مِنَ العَيْبِ، وَيَتَفَهَّمُ مَعْنَى قَوْلِ الشَّاعِرِ:

إِنَّ الحَدِيثَ تَغُرُّ القَوْمَ خَلْوَتُهُ   **حَتَّى يَلَجَّ بِهِم عِيٌّ وَإِكْثَارُ**

وَيَقِفُ عِنْدَ قَوْلِهِمْ فِي المَثَلِ: (كُلُّ مُجْرٍ فِي الخَلاءِ يُسَرُّ)، فَيَخَافُ أَنْ يَعْتَرِيَهُ مَا اعْتَرَى مَنْ أَجْرَى فَرَسَهُ وَحْدَهُ، أَوْ خَلا بِعِلْمِهِ عِنْدَ فَقْدِ خُصُومِهِ، وَأَهْلُ المنْزِلَةِ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَتِهِ". (الحيوان: ١/ ٨٨)

وَلَمْ أَزَلْ كَذَلِكَ حَتىَّ رَأَى فِيهَا طَائِفَةٌ مِنَ الأُدَبَاءِ شَيْئًا مِنْ عِلْمٍ وَأَدَبٍ، فَدَعَانِي غَيْرُ وَاحِدٍ إلى إِذَاعَتِهَا فِي النَّاسِ، وَأَبْدَؤُوا فِي ذَلكَ وَأَعَادُوا، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ إِذْنًا مِنَ الحَقِّ سِيقَ عَلَى أَلْسنَةِ العِبَادِ؛ فَإِنَّ "مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي الحَدِيثِ، فتحَ الله لَهُ أَفْهَامَ الخَلائِقِ".

وَكُنْتُ- إِلَى ذَلِكَ- امْرَأً أَسْتَكْنِهُ مَجَارِيَ الأَقْدَارِ وَسَابِقَ العِلْمِ مِنَ وَرَاءِ وَقَائِعِ الدُّهُورِ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يَقَعُ فِي هَذَا الوُجُودِ إِلا اجْتَمَعَ لِي فِي النَّظَرِ إِلَيْهِ نِسْبَتَانِ: حقِّيَّةٌ وخَلْقيَّةٌ، إِذْ لا يَعْتَدِلُ مِيزَانُ الدُّنْيَا إِلا بِهِمَا جَمِيعًا، فَمَنْ أَنْصفَ عَلِمَ أَنَّ الحِكْمَةَ سَارِيَةٌ فِي الأَكْوَانِ، وَأَنَّ وُجُودَهَا فِي سُكُونِ مَا سَكَنَ كَوُجُودِهَا فِي حَرَكَةِ مَا تَحَرَّكَ، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾، أَلا تَرَى إِلَى رَبِّنَا كَيْفَ قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[الأنبياء: 16]؟! وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فَهُوَ فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الأَرْضِ أَوْ بَيْنَهُمَا وَلا بُدَّ، فَلَزِمَ أَلا يَخْلُوَ مِنْ حِكْمَةٍ، وَالنَّاسُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ عُرْفٍ وَنُكْرٍ.

وَرُبَّمَا بَلَغَ الْعَبْدُ رُتْبَةً عِرْفَانِيَّةً تَقِفُهُ عَلَى وُجُوهٍ مِنَ الحِكَمِ فِي الحَوَادِثِ عَلَى اخْتِلافِهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَقْصُودَةً لِمَنْ وَقَعَتْ عَلَى يَدَيْهِ،

فَإِذَا هِيَ عِنْدَهُ إِشَارَاتٌ وَحَقَائِقُ يُجَلِّيهَا الخَلائِقُ. وَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ لا يُصَنِّفُ إلا بِسَابِقِ طَلَبٍ مِنْ تِلْمِيذٍ أَوْ شَيْخٍ أَوْ صَاحِبٍ أَوْ أَمِيرٍ، فَكَأَنَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَسْبِقَ التَّأْلِيفَ دَاعِيةُ حَقٍّ عَلَى لِسَانِ خَلْقٍ، أَوْ لَعَلَّهُمْ أَرَادُوا البَرَاءَةَ مِنَ الدَّعْوَى بِطَلَبِ التَّصَدُّرِ، وَأَنْ تُصِيبَهُمْ بَرَكَةُ "وَإِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا".

مِنْ أَجْلِ ذَلَكَ تَحَرَّكَتْ نَفْسِي إِلى إِجَابَةِ مَنْ سَأَلَنِي مِنَ الأَحْبَابِ نَشْرَ هَذِهِ الشَّذَرَاتِ، يَحْدُونِي الرَّجَاءُ أَنْ تَجِدَ فِيهَا- أَيُّهَا القَارِئُ الكَرِيمُ- طَرَفًا مِنْ لَذَّةِ العَقْلِ وَبَهْجَةِ النَّفْسِ.

وَقَدْ بَنَيْتُ الْكِتَابَ عَلَى التَّنَوُّعِ دَفْعًا لِلسَّآمَةِ، وَاسْتِجْلابًا لِعَازِبِ الهِمَمِ، فَلَكَ أَنْ تُطَالِعَهُ مِنْ أَوَّلِهِ، أَوْ مِنْ آخِرِهِ، أَوْ مِنْ حَيْثُ شِئْتَ مِنْهُ دُونَ أَنْ يَضْطَرِبَ فَهْمٌ أَوْ يَخْتَلَّ نِظَامٌ، وَلَكَ أَنْ تُطَالِعَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، أَوْ أَنْ تَسْلُكَ فِي قِرَاءَتِهِ مَسْلَكَ كَاتِبِهِ فِي كِتَابَتِهِ، فَتُطَالِعَهُ مُنَجَّمًا كَمَا كُتِبَ مُنَجَّمًا، وَلَكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَرْضَى مَا وَجَدتَّ أَسْبَابَ الرِّضَا، أَوْ أَنْ تَسْخَطَ مَا وَجَدتَّ أَسْبَابَ السُّخْطِ، وَأَنْتَ مَشْكُورٌ فِي الحَالَيْنِ جَمِيعًا.

وَلَسْتُ أَزْعُمُ أَنَّكَ مُصِيبٌ فِيهِ الحَقَّ مَحْضًا، فَقَدْ أَبَى اللهُ العِصْمَةَ إلا لِكِتَابِهِ، وَلا أَنْ يُسَاقَ إِلَيْكَ القَوْلُ فِيهِ عَلَى مَا تَشْتَهِي، فَلَرُبَّمَا أَطَلْتُ ذَيْلَ الْكَلامِ حَيثُ كَانَ الإِيجَازُ مَرْضَاتَكَ، أَوْ طَوَيْتُ بِسَاطَ القَوْلِ وَقُرَّةُ

عَيْنِكَ الإِطَالَةُ، وَإِنَّمَا يَكْتُبُ الكَاتِبُ عَلَى شَرْطِهِ، لا عَلَى شَرْطِ قَارِئِهِ، وَإِلا خَرَجَ مِنَ المُمْكِنِ إِلَى المُحَالِ.

وَلَسْتُ أَزْعُمُ كَذَلِكَ جِدَّةَ كُلِّ مَا كَتَبْتُ، وَلا أَنِّي أَبُو عُذْرَتِهِ، وَلا أَقُولُ مَا قَالَ أَبُو الْعَلاءِ:

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانُهُ لآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوَائِلُ

فَإِنَّهُ قَالَهَا بِلِسَانِ الشَّطْحِ، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ لِلشِّعْرِ شِرَّةً قَلَّ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهَا مَنْ تَعَاطَاهُ.

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ، فَلَنْ تَرَانِي- بِإِذْنِ اللهِ- أَنْحَلُ نَفْسِي قَوْلًا لَسْتُ قَائِلَهُ، وَلا رَأْيًا لَسْتُ صَاحِبَهُ؛ فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مِنْ بَرَكَةِ العِلْمِ أَنْ يُنْسَبَ القَوْلُ إِلى قَائِلِهِ. فَإِنْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ- وَمَا إِخَالُهُ إِلا وَاقِعًا- فَرُدَّهُ إِلَى غَفْلَةٍ تَكَنَّفَتْنِي، أَوْ إِلَى سَهْوٍ نَالَ مِنِّي مِثْلَ الَّذِي يَنَالُ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَإِنَّمَا أَوْجَبْتُ عَلَى نَفْسِي- فِيمَا أَتَّخِذُهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ رَأْيٍ- عَدَمَ الْعِلْمِ بِالسَّابِقِ، لا العِلْمَ بِعَدَمِهِ، "واللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيل".

أسامة شفيع

مدينة المبعوثين

الجمعة ٩ من جمادى الآخرة ١٤٣٧

الموافق ١٨ من مارس ٢٠١٦

مُحَمَّدٌ رَّسُولُ الله ﷺ

وَقَع في النفس أن من المعاني التي بدئت لأجلها آخرُ آية من سورة الفتح بقوله تعالى: "مُحَمَّدٌ رَّسُولُ الله" جبرَ خاطره ﷺ؛ وذلك أن هذه السورة هي التي فصَّلت الحديث عن صلح الحديبية، وما تلاه إلى فتح مكة حرسها الله تعالى.

وفي أحداث الصلح أن النبي ﷺ كان قد أملى على سيدنا عليٍّ كرم الله وجهه، فقال له: اكتب، هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله. فقال سهيل بن عمرو- رسول قريش في الصلح-: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، أو لما قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأمر رسول الله ﷺ سيدنا عليًّا عليه السلام بمحوها، فأبى، فمحاها ﷺ بيده الشريفة، فنزلت الكلمة نفسها قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، وأثبتت في كتاب الله بعد محوها من كتاب الناس جبرًا لخاطره صلى الله عليه وآله وسلم، مع ما فيها من الحق، وذلك في سورة أولها البشارة بالفتح والمغفرة والجنة، وأوسطها الرضا والوعد بالغنم والظفر، وآخرها الثناء والمدح والإطراء.

أَرْكَانُ الْوَلَايَةِ

قال بعض العارفين:

بَيْتُ الوَلايَةِ قُسِّمَتْ أَرْكَانُه سَادَاتُنَا فِيهِ مِنَ الأَبْدَالِ

مَا بَيْنَ صَمْتٍ، وَاعْتِزَالٍ دَائِمٍ وَالجُوعِ، وَالسَّهَرِ العَزِيزِ الغَالِي

تفكرت في البيت الثاني وما فيه من ترتيب الأركان الأربعة، فإذا هي قد رُتبت على أحسن نظام وأوفاه، بحيث لو تقدم أحدها أو تأخر عن موضعه الذي ورد فيه لاضطرب المعنى واختل.

فالصمت بالمحل الأول ولابد؛ لأن من أَلِفت نفسُه "قيل وقال" شقَّ عليه الاعتزال، بل لا يكاد يحاوله حتى يُجنَّ أو تخرج نفسُه عن طور الاعتدال، فلا بد من مزاولة الصمت أولًا، وطريقتُه أن يسكت كلما اشتهى القول، فإن تكلم فبميزان الذهب، لا إفراط ولا تفريط.

فإذا تمكن في الصمت انعطفت نفسه نحو العزلة وهي بين المسامحة والمنازعة؛ وذلك أنها لما فقدت حظها من الرياسة والتقدم بالكلام في المجالس صدفت عنها؛ إذ لم تعد تصلح محلًّا لظهورها.

والعزلة تحمل على التقلل من الطعام بقدر ما تحمل المخالطةُ على الاستكثار منه؛ فلذلك أُخِّرَ الجوع عنها في الترتيب؛ إذ هي الوسيلة إليه.

ويوشك أن يُسهِرَ الجائع ليله؛ إذ النومُ لازمُ الشِّبَع؛ ولذلك ظهر السِّمن بعد انصرام القرون الفاضلة الثلاثة؛ فكأنه أمارة نقص الباطن، ولعزةِ السهر تأخر ذكرُه، فهو"العزيز الغالي"؛ لأنه لا يُنال إلا بما تقدم من المجاهدات والرياضات.

ثم إن الوليَّ إذا استقامت له هذه الأركان، ورسخت قدمه في واحدٍ واحدٍ منها، لم يضرَّ باطنَه انفكاكُ ظاهرِه عنها أو عن أحدها في بعض الأحيان.

- فهو إذا تكلم لم تعزُب عنه فضيلة الصمت؛ إذ كان كلامه بنفسه، ثم أضحى بالله، ومن أضيف إلى الله تعالى كان في زيادة لا خسران فيها.

- وهو إذا خالط الناس لم تفته فضيلة العزلة، قالت العارفة رضي الله عنها:

وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِ مُحَدِّثِي ... وَأَبَحْتُ جِسْمِي مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي

فَالْجِسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ ... وَحَبِيبُ قَلْبِي بِالْفُؤَادِ أَنِيسِي!

فمن كان كذلك لم تضره المخالطة؛ لأن عزلتَه فيه لم تزَلْ.

وهو إذا أكل أو شرب لم تفارقه منقبة الجوع؛ لأن طعامه وشرابه إنما يكون وفاءً بالحق المرسوم في ظاهر الشرع، المشارِ إليه في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن لبدنك عليك حقًّا".

وهو إذا نام لم يُخلَّ نومُه بفضيلة السهر؛ فإن من الإرث النبوي للأولياء يقظةَ القلب وإن نامت العين، وقد قال العارف موميًا إلى هذا المعنى: "الرجل من نام الليل كله، ثم أصبح في المنزل قبل القافلة"، والله أعلم.

سَعْدِيَّات

وهي جملة مكاتبات مع شيخ العربية، أستاذنا الدكتور سعد مصلوح، متع الله به!

(١) مناجاة:

أهديتُ إلى أستاذنا ما فتح الله به من تفسير كلمة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في خطبة كتابه "الحيوان"، وهي المنشورة في هذا السِّفر بعنوان "خاطرة ليلية في شرح كلمة جاحظية"، فكتب الشيخ حفظه الله إليّ:

"ما إخال روح الجاحظ رحمه الله إلا قريرة عين بهذه الواردة، وأسأل الله حظًّا مثل حظه، أن يقيض لي بعد موتي من يشتغل ببعض كلامي اشتغال محبة، ولكن ما أنا وأبو عثمان؟!"

فأجبته وقد اغرورقت بالدمع عيناي:

"فسح الله لك في الأجل سيدَنا، وبلّغكم مناكم، وزادكم رفعة

في الدارين. أما حديث أبي عثمان، فلكلِّ زمانٍ جاحظٌ وأبو حيان! والعارفون بقدرك- يا بقية السلف- كُثُر، ولولا الحشمة منك لجالوا وقالوا، ولكن أَبَى الله أن يرفعك إلا به؛ فخلَّد ذكرك بما وصلك بكتابه، وتلك- وايم الله- الآبدة التي تنقطع دونها رقاب الفحول، والمنقبة التي يفاخر بها الفروع، بله الأصول".

(٢)كتب شيخنا هذه اللطيفة:

"يقال في العربية: القُرْبُ في المكان، والقُرْبةُ في المنزلة، والقُرْبى والقرابةُ في الرَّحِم".

فنظمتها في هذين البيتين:

وَلا يُقَالُ فِي اللِّسَانِ العَرَبِي   قُربَى قَـرَابـةٌ لِـغَـيْرِ النَّسَبِ
وَاجْعَلْ لِمَنْ دَنَا مَكَانًا: قُرْبَا   وَقُـرْبــةً لِمَـن يَحُــلُّ الْقَلْبَا

فكتب إليَّ شيخنا:

إلى عزيزنا أسامة شفيع الدين:

يـا مرحبًا بشيخنا أسـامـهْ   ومـن تـأثّـلـتْ لـه الإمـامـهْ
أتـيـتَـنـا بـرائـعِ المـعـاني   مـصـوغـةً في رائـقِ المـبـاني

تـنـظِـم مـا قـد سـقـتُـه نثيرا مُـيَـسَّـرًا بنظمك العسيرا
فـــالله أدعـــو لـــك بـالمـزيـدِ حتى تـلي إمـــارة القصيدِ

(٣) ونشر هذه الأبيات:

وكنتَ إذا أرسلْتَ طرفَكَ رائدًا لِقلبك يومًا أَتْعَبَتْكَ المناظرُ
رأيتَ الذي لا كُلُّهُ أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضِه أنت صابرُ

فكتبت من البحر والقافية:

وذلك أن الحقَّ للحُسن مُحتِدٌ وكـــلُّ جمـــالٍ فهو لله صائرُ
فَهِمّةُ باغي الحسنِ تهفو لغايةٍ فإن أدركتْها، حرك الشوقَ خاطرُ
كذلك دومًا كل ساعٍ إلى الحمى وكلُّ محبٍّ، فهو وَلْهانُ حائرُ!

(٤) التحفة السعدية في تقريظ المفاضلة الأسامية:

كنت قد نظمت أبياتًا تُجمل قاعدة فقهية، فقرظها أستاذنا الدكتور سعد مصلوح، وها هي الأبيات، متلوَّةً بالتقريظ السعدي:

مفاضلة بين الفضائل:

قال الفقهاء: إن الحرص على الفضيلة الراجعة إلى جنس العمل أولى من الحرص على الفضيلة الراجعة إلى مكانه، وخرَّجوا على هذه القاعدة مسائل، منها أن الصلاة جماعةً في غير مسجد خير من الانفراد

في مسجد، في أمثلة أخرى كثيرة، وقد نظمت هذا المعنى فيما يلي:

وكلُّ فضلٍ راجعٍ للجنسِ مقدَّمٌ، وما سواه يُنسِي
مثالُه: جمعًا بغيرِ مسجدِ الزمْ، فذا خيرٌ من المنفَرد
في مسجدٍ؛ إذْ كانتِ الجماعهْ أصلًا يُرى من خِيرَةِ البضاعهْ!

وهذا تقريظ مولانا السعد حفظه الله:

لله لفظٌ صغتَه متينُ كأنه من ذهبٍ فَتينُ
أحضرتَ فيه غائبَ المعاني في رائقٍ من محكم المباني
قدَّرتَ بالإتقان فيه السردا وكنتَ فيه مُعْلَماً وفَرْدا
وهكذا فلتكن المتونُ هل عَجَبٌ أني بها مفتونُ!

عَجَائِب!

جرى ذكر الأيائل (جمع أيل) لمناسبة أبيات معجِبة رواها صاحبنا الأديب الدكتور محمد متولي، وهي هذه:

هجرتُكِ لا قِلى مني ولكن رأيتُ بقاء ودكِ في الصدود
كهجر الحائماتِ الوِردَ لما رأت أن المنيةَ في الورود
تفيض نفوسها ظمأً وتخشى حِمامًا فهي تنظر من بعيدِ
تصد بوجْهِ ذي البغضاءِ عنْهُ وترمُقُهُ بألحاظِ الوَدودِ
كما نظر الأسير إلى طليق يُلم ببلاده لشهود عيد

وكان من شرح ابن دريد لهذه الأبيات أن "الحائمات" المذكورة هي الأيائل تأكل الأفاعي، فيلهبها الظمأ، فترِدُ الماء ترمقه "بألحاظ الوَدود"، لكنها تحجم مع ذلك عن الشرب؛ لعلمها أن فيه منيتها، وقد قلت تعليقًا على هذا الشرح:

"العجب من شرح ابن دريد كيف ابتناه على كلام الجاحظ في الحيوان (30 / 7)، فقد نص على أن الأيائل إذا أكلت الحيات تحامت

شرب الماء؛ "لأن السموم تجري حينئذ مع هذا الماء، وتدخل مداخل لم يكن الطعام ليبلغها بنفسه، وليس علم الأيل بهذا كان عن تجربة متقدمة، بل هذا يوجد في أول ما يأكل الحيات وفي آخره".

وقد عجب بعض الأصحاب من هذا الأمر، أعني أكل الوعول- وهي المعز الجبلي- الأفاعي، وساعدهم على ذلك أن المحدَثين لا يعرفون هذا الأمر، ولا يذكرونه في كتبهم.

على أن هذا ليس بأغرب ما يذكر في هذا الباب، فمن عجائب الأيل أيضًا أنه يرمي بنفسه من قُلة الجبل إذا خاف الصياد، ولو كان ألف ذراع، ولا يبالي بذلك!

وأعجب منه أنه يقع على قرنه ويسلم!

ومن عجائبه أنه إذا لسعته حية أكل "السرطان"؛ ولذلك قالوا: إن السرطان دواء للدغ الحيات.

ومن أغرب عجائبه تلك الصداقة التي قامت بينه وبين السمك، فهو يقصد إلى ساحل البحر ليرى الأسماك، ولما كانت المحبة كالصلاة "جامعة"، فإن السمك يقصد أيضًا إلى الساحل ليرى الأيائل!!

لكن الإنسان لم يُرضه أن يدوم هذا الود، فقد عرف الصيادون الأمر، فاتخذوا أكسية من جلود الأيائل ليقصدهم السمك، فيصيدوه!

كلما أنبت الزمان قناةً ... ركَّب المرء في القناة سِنانا!

أما الظبي، وهو نسيب الأيل، فحسبك من غرائبه ثلاث: أنه يستحلي ماء البحر فيشربه، ويستعذب مرارة الحنظل فيرعاه، ولا يأوي إلى كِناسه إلا مستدبرًا؛ لأنه أشد الحيوانات نفورًا!

ترى ما الذي رامه الشعراء إذًا من تشبيه النساء بالظباء؟

أكانوا يريدون العيون والجيود أم هذه "النفرة" التي لا تكون إلا في الحرائر، وذلك "الصبر" الذي لا تراه إلا في العقائل، أم تراهم أرادوا هذا الجمع بين حسن الظاهر وقوة الباطن؟!

كَيْدُ الشَّيْطَانِ وَكَيْدُ الإنْسَانِ!

وصف القرآن الكريم كيد الشيطان بالضعف، فقال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، ووصف كيد المرأة- وهي بعض الإنسان- أو قصَّ عن العزيز وصفه دون تعقب، فقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وجاءت قصص القرآن فأيدت هذا المعنى بوقائع من حياة الناس:

فأما كيد الشيطان، فلم يبلغ من نفوس إخوة يوسف عليه السلام قتل أخيهم، وإنما ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، والدليل على أن ذلك كان نزغ الشيطان، لا كيد الإنسان شهادة نبيين كريمين:

أما الأولى فجرت مجرى الإرهاص من يعقوب في خطابه ليوسف عليهما السلام: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

فهذا التذييل فيه تنبيه على أن الشر غير متأصل فيهم، وإنما هي عداوة الشيطان تُذكي ضراوة النفس، فتقع الخطيئة!

وأما الأخرى، فقول يوسف عليه السلام في آخر ذلك: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾.

فرد ما كان إلى نزغ الشيطان، ولا ينبغي أن يقال: إنه فعل ذلك جبرًا لخاطر إخوته فحسب، فلذلك لم يعز الذنب إليهم؛ لأن جبر الخاطر إن يكن مقصودًا للكُمَّلِ عليهم السلام، فهو في الرتبة الثانية بعد الصدق، وقد قال الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾، فهو ناطق بالحق، قائل بالصدق، وليس بمستغرب في الحكمة اجتماع أغراض شتى بلفظ واحد، بل هذا من عين الحكمة، فاجعله منك على بال.

وأما كيد الإنسان، وهو الذي يُعزى إلى نفسِه، فبلغ به قتلَ أخيه، كما دل عليه نبأ ابني آدم في قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فما ذكر الشيطان، ولا عزا شيئًا إلى غوايته، و لكنه سبحانه مَحَّضَ النسبة إلى نفس الإنسان وكيده، فتأمل!

فإذا تبينت ذلك، علمت السبب في الابتداء بذكر شياطين الإنس قبل شياطين الجن في معاداة دعاة الهدى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾.

فإذا قال لك النحاة: الواو لمطلق الجمع، فقل لهم: إن وقع هذا من غير حكيم فكذلك، أما الحكيم فإذا قَدَّمَ شيئًا فلحكمةٍ قدَّمَه، وإذا أخر شيئًا فلحكمةٍ أخره؛ وقد نبه المصطفى ﷺ على ذلك حين بدأ سعيه بالصفا، وقال "نبدأ بما بدأ الله به"، والله أعلم.

عَبْقَرِيَّةُ اللِسَانِ وَعَبْقَرِيَّةُ الْبَيَانِ!

قال ابن الرومي يصف الأرض مقدمَ الربيع:

تَـبرَّجَـتْ بَعْدَ حَـيَـاءٍ وَخَفَر   تَـبُّرَجَ الأُنْثَى تَصَدَّتْ لِلذَّكَرْ

التبرج في اللسان تزيُّن المرأة لغير زوجها، فهو إذن تزين الغَواية لا العادة، تزين الفتنة لا الوظيفة، أو هو تزين الطبيعة الحرة المختارة لا الطبع المكره المنقاد؛ وذلك أن المرأة ربما تزينت لزوجها لأحد هذه الأسباب الثواني، فلا يكون إقبالها عليه وتجمُّلها له دائمًا دليل حب غامر، أو عاطفة مشبوبة، أو رغبة مستعرة. ولا كذلك الحال مع "غير الزوج"؛ فإن هذا الإقبال الآثم لا يدعو إليه الواجب، ولا تمليه الضرورة، وإنما تدعو إليه الحاجة، وتُذْكيه الرغبة.

وليس في شأن الهوى كالبدوِّ بعد التخفي، ولا كالبذل بعد التمنع!

وقد احتجبت زينة الأرض حينًا من الدهر بحجابين كثيفين من

حياء وخفَر، وفرق ما بينهما أن الحياء طبيعة، أما الخفَر- وهو شدة الحياء- فطبع. وبيان ذلك أنه لا نزاع في عموم صفة الحياء في النساء بحسب ما يقتضيه أصل الخِلقة، فهذه الطبيعة، ثم تتفاوت مراتبهن فيه بعدُ قوةً وضعفًا، وهذا هو الطبع.

والخفْر (بتسكين الفاء) المَنَعَة والإجارة، فكأن العرب أرادت أن تقول بهذه المقاربة: لا يخفِر (يمنع) المرأة كخفَرها! فهذا كله من عبقرية اللسان.

لكن ابن الرومي لم يذكر في شطره الثاني نساءً ورجالًا، وإنما ذكر إناثًا وذكورًا، وهذا من عبقرية البيان التي أومأ إليها العنوان؛ لأن لكل نوع من الحيوان "تبرجًا" يلائم أفراده، فكأن الأرض حين أبرزت زينتها، وكشفت عن بهجتها، جمعت في ذلك ما تفرق في بناتها!

وقد اعترض عليّ معترض بقوله:

بُنِي الكلام في الفقرةِ الأولى على مُقَدِّمةٍ غير مُسَلَّمَةٍ؛ وهي أنَّ (التبرُّج) في اللسان: تزيُّن المرأة لغير زوجِها، وهو لذلك يكون "إقبالًا آثمًا"، والأصول القديمة لم تذكر هذا، ومن ذكر ذلك من المتأخرين لعله تأثر باصطلاحٍ فقهيٍّ، فالتبرُّج هو إبداء المرأة محاسن وجهها

وجيدها مطلقًا، للزوج، أو للمحارم، أو للأجانب، لكن برعايةِ أن تُرِيَ المرأةُ من عينيها حُسْنَ نظرٍ، فإن (البرج) سعة بياض العين مع حسن الحدقة، ومن جهة الشرع: يقع التبرُّج محمودًا ومذمومًا بحسب موقعه، والآية الكريمة (ولا تبرَّجن تبرُّج الجاهلية الأولى) تشي بهذا: أن من التبرُّج ما هو جاهليّ وما هو إسلاميّ.

وكان هذا جوابي:

الذي دلت عليه التفاسير ومعاجم اللغة أن التبرج مطلقُ تزين المرأة للرجال، ونصَّ المعجم الوسيط- وأصاب- على أنه تزين المرأة لغير زوجها خاصة؛ لأن المعنى أن الكلمة إذا أطلقت من غير قيد انصرفت في عرف اللسان إلى الحال المذمومة، وليس بمألوف أن يقال: تبرجت المرأة لزوجها، وإنما يقال: تزينت، فإن قيل فقيد الزوجية مؤذن بأن التبرج مصروف إلى الحال المحمودة.

وأما جذر التبرج وأنه حسن العينين على وجه خاص، فمسلَّم، لكنه لا يقدح في تخصيص الدلالة بالاستعمال، كما أن المأتم مطلق الاجتماع في فرح وحزن، فإن أُطلق فالمراد الحزن، وكالتبشير فإنه حكاية ما يؤثِّر في البشرة من مفرح ومترح، فإن أُطلق انصرف إلى ما

يسر خاصة، وكل ذلك خصصه الاستعمال، "والعادة محكَّمة".

على أن سياق بيت ابن الرومي مخصِّص لمعنى التبرج عنده، فإنه قال: "تبرج الأنثى تصدت للذكر"، وهو عين الصورة التى ضربها المفسرون مثلًا عند شرح الآية الكريمة، وأن التبرج في الجاهلية "إظهار الزينة، وإبراز المرأة محاسنها للرجال".

ونصهم في حد "التبرج" على ذكر الرجال دليل على ما ذهب إليه المعجم الوسيط من اختصاص هذ اللفظ- عند إطلاقه- بغير الزوج، وإلا فقد كان يكفي أن يقال: هو تزين المرأة مطلقًا، وبالضرورة يعرف كل مسلم أن منه حرامًا وحلالًا بحسب الحال. والله أعلم

ثَمَرَةُ المحَبَّة

جاء في بعض الحديث "أن الله إذا أحب عبدًا، نادى جبريل: إني أحب فلانًا، فأحبه، فيحبُّه جبريل، ثم ينادي أهلَ السماء: إن الله يحب فلانًا، فأحبوه، ثم يوضع له القبول في الأرض"، وقال الله تعالى في حديثه القدسي:"...، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها".

وههنا ثلاث لطائف:

أولاها: أن الأمر الإلهي:"أحبه"، و"أحبوه" في الحديث الأول ليس تكليفيًّا فيما يلوح لي؛ إذ لا تكليف يصح في المحبة، وما ورد من ذلك في الشرع إنما هو تكليف باتخاذ الأسباب الموصلة لها، والباعثة عليها، ولو كانت المحبة يصح التكليف بها، لما اعتذر رسول الله ﷺ بقوله:"فلا تؤاخذني فيما تملك، ولا أملك!" في مسألة القسم بين الزوجات.

فالأمر إذًا أمر منح وعطاء، أو هو "صورة كن في عالم القلوب"، وقوله ﷺ: "ووضع له في القبول في الأرض"، جرى كالتنبيه على هذا المعنى في حق أهل السماء، والله أعلم.

والثانية: أن قوله تعالى "كنت سمعه..." الحديث، تنبيه بما ظهر على ما بطن؛ فإن استيلاء الحق على جوارح العبد في مقام الحب ثمرة استوائه سبحانه على عرش القلب. ألا ترى إلى قول النبي ﷺ في القلب: "ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"، فدلك على أن صلاحَهَا فرعُ صلاحِه، وأن ما أدركها من الحَقِّيَّة- وهو أصلح الصلاح وأتمه وأوفاه- إنما كان بسبب منه، فالعبد المحبوب مغيب الظاهر والباطن في الحضرة الإلهية، مغمور بأنوارها، فإذا وقع الأمر بحبه لجبريل عليه السلام، ثم لأهل السماء، توجهت محبتهم لهذه الحضرة الحقية من البرزخ البشري، فيجتمع للعبد المحبوب ما لا يجتمع لغيره من الخير، فهو محب مريد، ثم محبوب مراد، ثم برزخ للمحبين، فما ترك في المقام موضعًا إلا وله فيه قدم ذوق. نسأل الله من فضله.

وأخرى اللطائف أني كنت أشرح حديث:"كنت سمعه الذي يسمع به..."، فقلت لمن حضر: هذا الحديث محضُ ذوقٍ، فلا يشرح، وغاية ما يقع لنا في معناه خبرةُ ذائقٍ، وليست تغني في باب الحقائق شيئًا، فما راءٍ كمن سمعا، وقديمًا عيب على من رضي في هذا الباب بالقص والرواية، قال العارف:

إن الذي يُنبي، وما هو شاهدٌ كالناعتِ الغسلينَ عذبَ فرات

فغاية ما هنالك إيقاظ الهمم وإحياء الموات، وليس وراء ذلك مرمى لرام.

وفي هذا الحديث رد على من أنكر رؤية الحق في الآخرة؛ وذلك أن أهل الجنة أحباب الله بيقين، فهو بصرهم "الذي يبصرون به"، فما رآه من رآه إلا به! وذلك أن الحديث عمّ، وما خص دنيا من آخرة، فحكمه سارٍ في الدارين، وما رأيت صلةً هي أقرُّ لعيني من هذه الصلة:"الذي يبصر به"، والله أعلم.

أَنْمَاطٌ مِنَ التَّأْوِيل

إليك هذه الصورة للأعشى، ميمون بن قيس:

ومَصاب غاديةٍ كأن تِجَارها ... نشرت عليه برودَها ورِحالَها

قد بتّ رائدَها، وشاةِ محاذر ... حـذَرًا يُـقِـلُّ بعيـنه أغفالَها

فظلِلتُ أرعاها، وظل يحوطها ... حتى دنوت (إذا) الظلامُ دنا لها

فرميتُ (غفلةَ) عينه عن شاته ... فأصبت حبةَ قلبها وطِحالَها

حفظ (النهارَ) وبات عنها غافلًا ... فخلت لصاحب لذةٍ وخلا لها

الغريب: الغادية: السحابة الباكرة، مَصابها: حيث أمطرت، راد الرجل رودانًا: دار وذهب وجاء في طلب شيء.

إذا تأملت هذه الأبيات من حيث ظاهر لفظها لم ترَ إلا حديثًا عن شاة، ورائد، وحاذر، وأنه لما ذهبت الحيطة، وحلت الغفلة، سنحت الفرصة، ووقع المحذور!

فإذا علوت بالنظر درجة، رأيت الشاة "المرأة"، والحاذر "من يقوم عليها"، والرائد "العاشق صاحب الهوى"، وأنه لما ذهبت الحيطة، وحلت الغفلة، سنحت الفرصة، ووقع المحذور!

فإذا علوت درجة أخرى، رأيت مَصاب الغادية في الإشارة: "متاع الدنيا"، والشاةَ: "نفس ابن آدم"، والحاذرَ: "المؤمن"، والرائدَ: "الشيطان"، وأنه لما ذهبت الحيطة، وحلت الغفلة، سنحت الفرصة، ووقع المحذور!

وبين هذه الأنماط الثلاثة صلة خفية، مردها إلى "الاشتراك في المعنى"، وإنما فرق بينها تفاوت قوة ظهور هذا "المعنى المشترك" فيها، فهو أظهر ما يكون في النمط الأول، وهو متوسط في الثاني، غامض في الثالث.

على أن "قوة الظهور" لا تعني "كمال تمكن الصفة في الموصوف"، على نحو ما قال الله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، فأثبت في الظاهر وصفًا، وفي الباطن نقيضَه، وعلى نحو ما قال رسول الله ﷺ "رُبّ أشعث أغبر، ذي طمرين، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره"، فأثبت صفة هي رثاثة الهيئة، استتبعت في نظر الناس حكمًا هو الدفع والإقصاء، والأمر عند الله تعالى على خلاف ذلك، فقد دلت الحكمتان إذًا: الإلهية والنبوية على أن قوة الوصف في الظاهر لا تعني "كماله في الباطن"، بل لا تعني في كل حال قيامه في الباطن.

وكذلك ههنا: "قوة ظهور المعنى المشترك" في النمط الأول،

وتوسطه في الثاني، وغموضه في الأخير لا يعني أن هذه الأنماط جارية في "تمكن المعنى" من كلٍّ منها على هذا الترتيب، وإنما الأمر على عكس ذلك، فالأول في "قوة ظهور المعنى المشترك" آخرها في تمكنه، وآخرها أولها، والمتوسط بحاله في النسقين جميعًا. وإنما يتفاوت الناس في الفهم بحسب تفاوتهم في مداركه، وبحسب ما طُبعوا عليه في أصل الجِبِلَّة من انصراف الهمة إلى البحث والتنقيب للوقوف على دقيق المعاني، أو من نقيض ذلك جملة.

وعلى ذكر من التفاوت، أقول: لقد لفتني في كثير مما أقرأ اختلاف "قيم" الأشياء باختلاف "غايات" الناظرين، ففي الأبيات السابقة مثلًا ترى أن بعض ما يكون "فضلة" عند علماء اللسان يكون "فضيلة" عند أرباب البيان!

ألا ترى أن سبب ذلك كون "لون الماء لون إنائه"؟

قال لي صاحبي الناقد: ثمة فارق بين النمط الثالث من أنماط التأويل وبين سابقيه، فالنمطان الأولان يقومان على أساس لغوي، فالشاة فيما يحتج به من اللغة لها معناها الأصلي، وكذلك قد تعني (المرأة) كما ورد في شعر عنترة على سبيل المثال. أما النمط الثالث، فيقوم على أساس

رمزي، والمفترض في الرمز أن يتسق مع بقية القصيدة، والحق أنه- فيما أرى- لا اتساق بينه وبين البيت الأول المذكور.

فأجبته: عجبت لقولك بانْبِتات الصلة بين البيت الأول وبين سائر الأبيات من الوجهة الرمزية! لأن الشاعر إنما أراد بـ "مَصاب الغادية" الأرض أصابها مطر السماء، فاهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، وهو قوله: "كأن تجارها نشرت عليه برودَها ورِحالَها"، وقد اتخذتُها في الرمز مثلًا للدنيا "تبرجت بعد حياء وخفر * تبرج الأنثى تصدت للذكر"، فأغرت وغرَّت، فأي بعد في هذا؟! وهل عبر القرآن عن إقبال الدنيا إلا بابتهاج الأرض: "حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت" الآية. ثم جعلتُ الشاة نفسَ المؤمن، لمناسبة الرعي لمعنى السعي في طلب الملاذ، ولكون ذلك قائمًا بحاجة الأبدان دون الأرواح، وخصصت المؤمن لكونه هو "الحاذر"، وغيره ليس كذلك. وأما "الرائد" فاتخذته رمزًا للشيطان، بجامع الحرص على الإذاية عند كليهما، والاحتيال لذلك، والتربص اهتبالًا للفرصة.

خَاطِرَةٌ لَيْلِيَّةٌ
فِي شَرْحِ كَلِمَةٍ جَاحِظِيَّةٍ

قال الجاحظ في فاتحة كتابه "الحيوان":

"جَنَّبَكَ اللهُ الشُّبْهَةَ، وَعَصَمَكَ مِنَ الحَيْرَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ المعْرِفَةِ نَسَبًا، وَبَيْنَ الصِّدْقِ سَبَبًا، وَحَبَّبَ إِلَيْكَ التَّثَبُّتَ، وَزَيَّنَ فِي عَيْنَيْكَ الإِنْصَافَ، وَأَذَاقَكَ حَلاوَةَ التَّقْوَى، وَأَشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الحَقِّ، وَأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ اليَقِينِ، وَطَرَدَ عَنْكَ ذُلَّ اليَأْسِ، وَعَرَّفَكَ مَا فِي البَاطِلِ مِنَ الذِّلَّةِ، وَمَا فِي الجَهْلِ مِنَ القِلَّةِ".

فقلت شارحًا:

من جنبه الله الشبهةَ فقد عصمه من الحيرة؛ وذلك أنها منها بالمحل الذي لا يخفى، إذِ الشبهة تَرَدُّدٌ بين حقٍّ وباطل لما لها من شَبَهٍ بكلٍّ واحدٍ منهما، ولا كالمعرفة رافعًا لها، فإن مَنْشَأَ الترددِ الجهلُ بحقائق الأشياء وما هي عليه.

غير أن المعرفة- لعزتها ونفاستها- لا تتخذ نسيبًّا إلا مَن صَدَقَ في توجهه إليها، فإن الكاذبَ منكوسُ إناءِ القلب، لا يحفظ قطرةً ولو وَجَّهتَ إليه ماء البحر. والصادقُ- مع ذلك- ليس يكفيه صدقُه في باب المعرفة حتى يضمَّ إليه صحةَ عقله، وذلك بالإمعان في التبصر المشار إليه بلفظ "التثبت"، من أجل ذلك قال الإمام مالك، إمام دار الهجرة: "تَرَكْنَا في المدينة مائةَ شيخٍ، كلُّهم تُرجى دعوتُه، ولا تُقبل روايتُه!"، وما ذاك إلا لأن الصلاح الذي هو ثمرةُ صحة القل لم يكن له ضميمةٌ من صيانة العلم التي هي ثمرةُ صحة العقل.

وليس يبلغ طالب ذلك شيئًا منه إلا إذا أنصف من نفسه؛ فإن الحق يكون تارةً معه، وتاراتٍ مع غيره، فإذا فاته الإنصافُ عَرَفَ القليلَ الذي معه، وأنكر الكثيرَ الذي مع غيره، فكان إلى الذمِّ بالجهالة أدنى منه إلى المدح بالمعرفة.

ولما كان "الظلم من شيم النفوس"، فلن يصبر على غُصَّةَ الإنصافِ إلا من اعتصر بحلاوة التقوى، فذلك الذي يطلب برد اليقين في الحق، فيتعزز به، وينفر من ظلمة اليأس في الباطل فيستهين به، ومن عرف ما في الباطل من هوانٍ عرف ما في الجهل من وهن.

الجَمَالُ الذَّاتيُّ وَجَمَالُ المُنَاسَبَة

سألني بعض الأدباء- لمناسبة حديث بيننا- عن استحسان البيت والبيتين بمنأى عن سائر القصيدة، فقلت في جوابه:

الدرة تحسن مفردة، كما تحسن منظومة مع أخواتها في سلكها!

فالأول جمال ذاتي، والآخر جمال "المناسبة"، ولقد كنت رأيت كلمة لفيثاغورس، وسُئل عن غاية الحُسن؟ فقال: "التناسق!"، وهو مذهب العقاد في "الجمال" على ما أذكر.

فالحاصل أن النظر في البيت والبيتين على الاستقلال لا بأس به، بل هو سنة من سلف شعراءَ ونقادًا، وإنما حدث النظر الجُمْلي في المتأخرين، ولا تقتضيه بنية الأدب القديم، بل لعلها تقتضي خلافه، ولو أنك رأيت كل بيت من أبيات القصيدة صورة "لفظية" لوارد "نفسي" لأرحت واسترحت. ولمّا كانت الواردات لا ثبات لها، فكذلك الصور.

وقد أومأ صاحب "الملل والنحل" إلى هذا المعنى حين قال عن حكماء العرب: "أكثر حِكَمِهم فَلَتَاتُ الطبع، وَخَطرَات الفكر"، وليس الشعر ببعيدٍ من الحكمة، ولا الشعراءُ بِبُعَدَاءَ من الحكماء.

وقد حضرني الساعةَ معنى لطيفٌ، وهو أن العرب آثرت أن يكون للشعراء شياطين، لا عرائس كما فعلت يونان، فمَا سر ذلك؟

يُخيّل إلي أن هذا الأمر لم يكن عبثًا، فإن سرعة التنقل بين الأحوال من لوازم "الشيطنة"؛ لما تقتضيه الطبيعة النارية، فأنتج ذلك أثرًا في بنية الأدب، وكذلك فإنه ليس أبعد من الشيطان عن الحقيقة؛ فلذلك غلب المجاز على الشعر عندنا، وليس تراقص الأوزان ببعيد من تراقص "ألسنة" النار، فهي في علوها وهبوطها دائرة بين نقيضين، كالذي بين الحركة والسكون في تفاعيل البحور. ثم من عجبٍ أن البحر آيل إلى النارية أيضًا، وأنها كامنة فيه كمون الشجرة في النواة؛ "ولهذا كان عبدالله بن عمر إذا رأى البحر يقول: يا بحر متى تعود نارًا؟ وقال تعالى: "وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ"، أي أُججت نارًا، من سجرت التنور، إذا أوقدته، وكان ابن عمر يكره الوضوء من ماء البحر، ويقول: التيمم أعجب إليّ منه. ولو كشف الله عن أبصار الخلق اليوم لرأوه يتأجج نارًا،

ولكن الله يظهر ما يشاء، ويخفي ما يشاء، ليُعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا" (الفتوحات١/ ٣٧٥،٣٧٤).

وقد عتب عليّ بعض الفضلاء شرحي بيتًا من الشعر مفردًا، وقال: لو أوردت سَباقه ولَحاقه لرأينا مواطئ الأقدام فيه، فأجبته كالمعتذر، وأنا بين الهزل والجِد:

قـــد جـــــاءني فـــردًا ... حـــــيرانَ مُـــرْبَـــدَّا

وقـــال: ذُدْ عـــنـــي ... يـــا صـــاح مـــا نـــدّا

وَرَدتُّ مـــــاءَكـــــمُ ... أنـعـم بـــــه وِردَا!

فـــامـــنـــحْ رغـيـبـتـنـا ... لا تمـــنـــع الـــرِّفـــدا

أســـكـــنـــتُ طـــائـــرَه ... ومـــنـــحـــتُـــه الـــوُدَّا

وأجـــبـــتُ حـــاجـتَـــه ... لـــم أســـتـــطـــع ردَّا

فـــالـــعـــذرَ مـــولانـــا ... إذْ لم أجـــد بُـــدَّا

سُؤَالٌ وَجَوَابٌ
فِي القِرَاءَةِ النَّافِعَةِ

أرسل إليَّ بعض الأصدقاء بعد السلام والتحية يسألني عن الطريقة المثلى للاستفادة من قراءة الكتاب، وتحصيل أكبر قدر من الفائدة الدائمة لأطول مدة، فكان هذا جوابي:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

السؤال واحد، والأجوبة بعدد أنفاس الخلائق!

فليس الناس سواءً في الحِذق، وجودة الحفظ، وتيقظ الملكة في زمان المطالعة حتى يُفتوْا بفتوى واحدة.

وليست الأزمنة واحدة فيما يكون فيها من صفاء الذهن، ورخاوة البال، وعزوب الهموم.

وليست الكتب نمطًا واحدًا حتى نحذوَ بها حذوًا واحدًا لا نعدوه.

فبعضُها غثاءٌ إن استمكنْتَه في نفسك أنزلته غير منزلته، وبعضها

يُقرأ مرة ثم ينسى، وبعضها يطالع في الزمان بعد الزمان، وبعضها مقرُّه إنسان العين أو سويداء الجنان.

وليس العلم الذي تطالع فيه أولَ كتاب، كالعلم الذي حنَّكتك فيه الدربة، ولاطه بقلبك الإلف وطول العهد.

وليس العلم الذي فاتِحَتُهُ عندك التلقينُ والأخذُ عن الشيوخ، كالعلم الذي تبنيه على الاستقلال وتجريد النظر.

فهذه وأشباهها تفاصيل لا تحسن الغفلة عنها، فإن كنت تريد جوابًا عامًّا لسؤالك، فبوسعك الإفادة من نصائح كبار الكتاب، من نحو:

- كتاب تقرأه ثلاث مرات خير من ثلاثة كتب، تقرأ كلًّا منها مرة واحدة.
- لخص كل كتاب تقرأه.
- استصحب قلمك في القراءة، ولا تدع شيئًا تستحسنه دون أن تسمه بما يدل عليه.
- اجعل لنفسك "كشكولًا" لصيد الأوابد، وقيد الشوارد.
- لا تَلزَم كاتبًا بعينه؛ وإلا طواك فيه وأنت لا تدري، ولقد قيل:

إنك لن تعرف عيب شيخك حتى تجالس غيره.

- لا تقتصر في الموضوع الواحد على كتاب واحد، بل عليك بطريقة "الحُزَم المعرفية"، وهي أن تطالع في الموضوع الواحد طائفة من الكتب.
- اقطع القراءة إذا اعتراك الملال، إلا أن يكثر ذلك عليك، فلا تُسلِم له زمامك، بل فتش عن سببه.
- البال المشغول كالقيعان من الأرض: لا تُمسك ماءً، ولا تُنبت كلأ.
- خير أماكن القراءة الخلواتُ، وخير أزمنتها عقيب نومٍ هانئ.
- إذا كنت تعرف لغة أخرى سوى العربية، فاقرأ بها، ولو في الحين بعد الحين؛ فإن ذا العينين يعاب إذا سار سيرة الأعور.

والخاتمة التي ما أخرت إلا لجلالتها: تصحيح النية.

السِّحْرُ الحَلَالُ
فِي لَحنِ ذَوَاتِ الدَّلَالِ!

فدَّيتُ مَنْ لحنُه

ألذُّ مِ الإعرابِ!

ومَن يُرَى عِيُّه

فنًّا من الآدابِ

في صوته رقةٌ

تزيد من أوصابي

ولفظُه سُكَّرٌ

وفتنةُ الألبابِ!

في حسنه مبتلىً

بغيْرة الأترابِ

ويلي من المشتهَى

فدأْبُهُ إتعابي!

أصاب في دَلِّهِ

ما شاء من آرابِ

خاصمتُه مرةً

مشمِّرًا لعقابِ

وكان من غفلتي

أني استزدت عذابي!

فجاءني باكيًا

ملازمًا للبابِ

وزاد في غُنجه

حتى تحرك ما بي

وذو الهوى عاجزٌ

مُقطّع الأسبابِ!

هَذِهِ بِتِلْكَ يَا جَرْمِيّ!

كنت أطالع قصيدة لشاعر كبير، يشكو فيها ألمه، ويبث الناس حزنه، غير أنه آثر أن يبلغ غايته من غير الطريق التي ألفها الناس، فجرّد من نفسه شخصًا آخر، ثم جعل يُذكِّره كيف تقلبت به صروف الحياة، وغشيته نوائب الدهر، فأحالت الوَدادة خِبًّا، والصديق الصدوق ذئبًا، ثم لما فرغ من شكاته، وبثِّ أنّاته، كأنما رُد إليه عازبُ أنسه، فعدل عن الخطاب إلى التكلم، فحضرني في معنى ذلك أن الالتفات من ضمير المخاطب إلى ضمير المتكلم تنبيهٌ على تغير الحال من وحشة موحشة إلى أنس مؤنس، ثم تساءلت: من أين أتاني هذا المعنى؟ فإذا هو عندي صورة فنية لنكتة فقهية؛ وذلك أن الفقهاء قالوا في "الاستسقاء": إن الإمام إذا فرغ من الدعاء غيرّ هيئة ثوبه، فجعل أعلاه أدناه، وأيمنه أيسره، تفاؤلًا بتغير الحال من عسر إلى يسر، ومن جدب إلى خصب، ورفعوا في ذلك حديثًا إلى النبي ﷺ، فبدا لي أني ذهبت مذهبي في الالتفات من أثر هذا المعنى الفقهي، فلما انتهيت إلى هذه

النكتة ذكرت قول الجرمي:"إن لي عشرين سنة أفتي الناس من كتاب سيبويه"، فقيل له : فما تقول فيمن سها في سجود السهو؟ فقال: لا شيء عليه، من قولهم: المصغر لا يصغر"، فتبسمت ضاحكًا، وقلت في نفسي: لا بأس، هذه البلاغة- وهي النحو العالي- تومي إلى خفي معانيها كتبُ الفقه.

فهذه بتلك يا جرمي!

حُبُّكَ الشَّيءَ يُعْمِي وَيُصِمّ

ليس العمى كالتعامي، والنص إنما ورد بعمى المحب، وحاصل الفرق أن الأعمى لا تنقدح حقائق الأشياء في نفسه؛ لأنها لا تلوح لعينيه؛ لانعدام القوة الباصرة، فعَطَبُ الآلة حال دون عملها، ولا كذلك المتعامي، فإن آلة الإبصار عنده لم تزل، وقد أدرك بها حقائق ما رأى، ثم كان الإغضاء إما لحامل المحبة، أو لحادي الرجاء، أو لداعي الحياء، أو لوازع الرهبة، والإغضاء يقبل الشركة في البواعث، وتعليله بغير الحب جارٍ جائز، والحب الصرف ليس كذلك؛ فإنه يورث انقلاب أعيان الخصال بين المحبين، بل منه ما يفضي إلى امِّحائها جملة، بل إلى الفناء في المحبوب، فكأنه هو، وقد قلت في بعض شعري:

إذْ لا كمالَ في الهوى وثَمَّ قائلان!

طَبَائِعُ الحَيَوَانِ وَخَلَائِقُ الإِنْسَان بَيْنَ صِدْقِ الفِطْرَةِ وَعُمْقِ الفِكْرَة

كتب الجاحظ، يقول:

"أوَ ما علمت أن الإنسان إنما سموْه العالم الصغير سليلَ العالم الكبير، لما وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدنا له الحواس الخمس، ووجدوا فيه المحسوسات الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما تقتاته البهيمة والسَّبُع، ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد، وغدر الذئب، وروَغان الثعلب، وجُبن الصِّفرد، وجمع الذَّرَّة، وصنعة السرْفة (دويبة سوداء الرأس، وسائرها أحمر، تتخذ لنفسها بيتًا مربعًا من دقائق العيدان، تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال الناوس، ثم تدخل فيه وتموت)، وجود الديك، وإلف الكلب، واهتداء الحمام. وربما وجدوا فيه مما في البهائم والسباع خلقين أو ثلاثة...، وسموه العالم الصغير لأنهم وجدوه يصور كل شيء بيده،

ويحكي كل صوت بفمه. وقالوا: ولأن أعضاءه مقسومة على البروج الاثني عشر والنجوم السبعة...،فجعلوه العالم الصغير إذ كان فيه جميع أجزائه وأخلاطه وطبائعه" (الحيوان ١/ ٢١٤:٢١٢).

وأذكر أني قرأت في كتاب "الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيان إيمانه بلازم هذا المذهب، وهو أن الكائنات الدنيا في سماتها وطبائعها إنما هي كالمُسَوَّدة لبني الإنسان في أخلاقهم وطِباعهم، فمهما رأيت في الإنسان من خليقة وسعك أن تردها إلى أصلها في هذا الحيوان أو ذاك، غير أن هذه الطبائع تجري في الحيوانات الدنيا على نسق سهل قريب لا تخطئه عين الرائي، فإذا تأملتها في سلوك الإنسان وقفت على ما أصابها من تعقيد ربما صرف العجِل من الباحثين عن إدراكها.

وفي العصر الحديث اتخذ العقاد هذه الفكرة فلسفةً صاغها، وعمل على مقتضاها فيما يكتب من بحوث يروم فيه الوقوف على طبائع الناس في معاملاتهم. ومن طريف ما يروى في هذا الصدد ما حكاه من أن أديبًا من أصدقائه رأى عنده كتبًا في غرائز الحشرات، فأبدى العجب مما رأى، وقال: أنت تكتب في الأدب، فمالك ولغرائز الحشرات؟! فأجابه العقاد مازحًا: أنسيت أنني أكتب أيضًا في السياسة؟! يريد أنه يرى أثر أمثال هذه الغرائز في سلوك الساسة.

ذكرت هذه المعاني وقد لفتتني عناية العرب بالحيوان في آدابها وأمثالها، وعجبت ممن رأى ذلك من أمارات البداوة، ورده إلى سذاجة الفطرة، ثم عزاه إلى الفراغ وخلو البال من مثل ما ملأت به الحضارة الحديثة نفوس أبنائها!!

تقول العرب في أمثالها: "أعدى من الظليم" من العدو، وذلك أنه إذا عدا مد جناحيه، فكان حُضره بين العدو والطيران. وتقول:"أعدى من الحية"، و"أعدى من الذئب"، و"أعدى من العقرب "، وكل ذلك من العدوان وهو الظلم، وتقول "أعق من ذئبة "؛ لأنها- زعموا- تكون مع ذئبها فيُرمى، فإذا رأته قد دمي شدت عليه فأكلته، قال رؤبة:

فـلا تـكـوني يـا ابـنـة الأشـمّ ورقـاءَ، دمَّـى ذئبَهَا المُدمِّي

وتقول "أعطش من النَّقَّاقة" تعني: الضِّفدع؛ وذلك أنه إذا فارق الماء مات، وتقول أيضًا:"أعطش من النمل"؛ لأنه يكون في القفار حيث لا ماء ولا مشرب.

في بعض ما ذكرت مراقبة لأحوال الحيوان الظاهرة، وفي بعضه استدلال بها على خصاله الباطنة، كوصف الحية والعقرب بالظلم، ووصف الذئبة بالعقوق. ولقد علمتِ العربُ أن الحيوان لا تضبط

سلوكَه إلا غريزتُه، وأنه ليس من مَطَالب الأخلاق وآداب الاجتماع في شيء، فما وجه إلحاحها إذًا على وصف "ما لا عقل له" بما لا يوصف به إلا "ذو عقل"؟

تُرى أكانت تجد فطرةً ما رآه أبو حيان والعقاد فكرةً؟!

هذا ولم نعرج إلا على طائفة من الأمثال، فكيف إذا نظرنا في الشعر وما حوى، لكنَّ حسبي ما ذكرت، ففي الإشارة غُنية عن العبارة.

مِنْ بَلَاءِ التَّصْحِيفِ

كتب إليّ صديق أديب يقول: لدي سؤالٌ. قال المرزوقي في شرحه:

"و (إما) كـ (أو) في أنه لأحد الأمرين، إلا أن (أو) يُبنى الكلام فيه على اليقين، ثم يعترض ما يخرج به عنه؛ و(إما) يُبنى الكلام فيه على عين اليقين، ولهذا الذي قلناه قال حذاق أصحابنا: إنه ليس من حروف العطف، وكيف يكون منها وهو يجيء قبل ما يعطف عليه أو مع حرف العطف. تقول: رأيت إما زيدًا وإما عمرًا، فـ (إما) الأولى سابق المعطوف عليه وهو زيد، و (إما) الثانية معها الواو العاطف" فما معنى كلامه، بارك الله فيكم؟

فكتبت إليه:

قوله: "و (إما) كـ (أو) في أنه لأحد الأمرين" معناه امتناع الجمع بين جميع ما ذكر معهما. فإذا قلت: خذ درهمًا أو دينارًا، أو قلت: خذ إما درهمًا وإما دينارًا، فلا ينبغي لمن سمع هذا أن يأخذهما جميعًا؛ لأن كلا الحرفين موضوع للأحد، وإن كان الصواب أن يقال: إن "أو" موضوعة لأحد الشيئين أو "الأشياء".

وقوله: "إلا أن (أو) يُبنى الكلام فيه على اليقين، ثم يعترض ما يخرج به عنه" معناه أن قولك "رأيت زيدًا" يقين، فهذا أصل البناء، ثم يرد عليه: "أو عمرًا"، فتخرج عنه إلى الشك أو إلى غيره من المعاني التي يفيدها "أو".

أما حرف "إما"، فإنه "يُبنى الكلام فيه على غير اليقين"؛ لأنك إذا قلت: "قام إما زيد" دللت في أول حديثك على أن مَبنى كلامك على "التردد" في حقيقة من قام؛ إذ أتيت بـ "إما" فاصلة بين العامل والمعمول، ثم تقول "وإما عمرو"، فابتناء الكلام هنا على "غير اليقين" راجع إلى إفادة التردد من أول وهلة قبل تمام المعنى، ولا كذلك الحال في "أو"؛ لأن قولك "جاء زيد" كلام تام، فإذا قلت بعدُ "أو خالد" طرأ ما يخرج بك عن "أصل البناء".

والنكتة في الفرق بينهما تأخر "أو" عن المعمول، وفصل "إما" بينه وبين عامله!

هذا ما تيسر في فهم كلام المرزوقي رحمه الله، وإنما وقع الإشكال بسببٍ من التصحيف الذي وقع من الناسخ، إذ كَتب "عين اليقين" بدلًا من "غير اليقين"! وما بقي فمبين في كتب النحو؛ وحاصله أن "إما" ليست من حروف العطف، باتفاق في الأولى، وبخلاف في الثانية، والله أعلم!

تَشَابهِ الحِكَايَاتِ ذَواتِ العِبْرَةِ فِي الأَدَابِ المخْتَلِفَة

كتب إليّ صديق لمناسبة حكاية أوردتُها من كتاب "الصَّاهِل وَالشَّاحِج" لأبي العلاء:

"أثارت هذه الحكاية الطريفة عندي مسألة تشابه الحكايات عربيًّا وعالميًّا، فهذه الحكاية التي أتحفتنا بها تشبه حكاية أخرى معروفة من حكايات جحا، والحكايةُ العربية التي عرفت مدرسيًّا بـ (الاتحاد قوة) عرفتها حكايات إيسوب القديمة، فمن أين أتى هذا التشابه العجيب؟"

فكتبت إليه قائلًا:

تشابه الحكايات والقصص ذات العبرة بين الأمم مردّه- فيما يبدو لي استظهارًا- إلى أحد ثلاثة معان: المحاكاة، وعموم المعنى، ووحدة الأصل.

فأما المحاكاة، فأمرها بيِّن، وهي أن يعمد أديب متأخر- معلوم أو مجهول- إلى أثر أدبي متقدم- معلوم صاحبه كذلك أو مجهول-

فينسج على منواله، ثم هو بالخيار: إن شاء وافقه سبكًا وحبكًا، وإن شاء تصرف نوْعَ تصرف على ما تقتضيه المباينة في الزمان والمكان، وجوهر الحكاية في الحالين واحد.

وأما عموم المعنى، فحاصله أن يكون المعنى الذي تعالجه القصة مما اتفق عليه جمهرة العقلاء، أو أثبتته حوادث التاريخ، أو دلت عليه تجارب الأمم، فحينئذ ترى القصة عينها عند شعوب شتى، قديمة وحديثة، في الشرق والغرب على السواء. وههنا مزلة قدم، وذلك أن المولعين بـ "التأثير والتأثر" يُهْرَعون إلى أمثال هذه المشابه ليتخذوها مطية لإثبات ما يشتهون من تقدم وتأخر، أو اتباع واستقلال، وليس ذلك مقصورًا على الآداب والفنون وحدها، ولكنه شمل العلوم والفكر أيضًا.

وأما وحدة الأصل، فأن ترجع الحكاية إلى أصل قديم توارثته أمم شتى، فأثمر في كل منها قصة أو قصصًا إن رحت تفتش في أغوارها ردتك حتمًا إلى ذلك الأصل، وأظهر أمثلته الدين. والله أعلم.

"جَمَالِيَّاتُ" التَّجَاوُر

قال لي صاحبي الأديب:

"إني لأجد في نفسي من هذا المصطلح، فكلمة جماليات محملة بالمعاني والفلسفات، وحين تطلق بهذا الاشتقاق فهي تشير إلى أن قيمة الشيء أو جماله- إن صح التعبير- يلتمس في ذات الشيء، فهو جميل وقيم في ذاته، ولا يلتفت في ذلك إلى أية منفعة فيه، أو غاية ترجى منه. كما أن التجاور لا يعني بالضرورة تناسق المتجاورات وتناسبها، فكثيرًا ما تكون المتجاورات متنافرة. وأخيرًا فإن هذا التركيب "جماليات التجاور" كثيرًا ما يراد به الجمال الناشئ عن تجاور المتنافرات".

فكتبت إليه جوابي:

قد علمت- يا مولانا- ما يقوله النحاة من أن المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد، فما ينبغي أن تنظر- والحال هذه- إلى كلمة "جماليات" بمعزل عن كلمة "التجاور"، بل هما لازمتان معًا، وحينئذ لا يستقيم قولك إنها "تشير إلى أن قيمة الشيء أو جماله يلتمس في

ذات الشيء، فهو جميل وقيم في ذاته، ولا يلتفت في ذلك إلى أي منفعة فيه أو غاية ترجى منه"، وإنما هو جميل في سياقه، بحيث لو أخرج منه، أو غُيِّر موضعه فيه لأصابه من القبح بقدر ما فاته من الجمال.

وكذلك فأي بأس في أن يكون بعض الجمال ذاتيًّا؟ أيلزم في كل جميل أن تدرك من ورائه منفعة أو أن يكون لجماله غاية؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلن يكون جميلًا عندك إلا ما أصبت أنت منفعته، أو أدركت أنت غايته؟ ثم أليست البهجة التي تملأ النفس لرؤية الجمال غاية تُتوخّى، ومنفعة تُرتَجى؟ فهذا جواب أولًا.

أما ثانيًا وثالثًا- ولا أدري لم فصلت بينهما؟! فقد علمت أيضًا أن نوعًا من الجمال ينشئه التنافر، كجمال الطباق في الكلمات، والتقابل في الجمل، والتعارض في الألوان، وههنا تحضرني قصة رواها ابن قتيبة في عيون الأخبار، خلاصتها أن فتاة شديدة الدمامة قامت إلى جوار سيدتها الحسناء، فنهرتها سيدتها وأرادت أن تصرفها، فقالت الجارية لسيدتها: إنما برز جمالك بي! فههنا تجاور جمالان: جمال صورة السيدة، وجمال عقل جاريتها. وعلى الجملة، فما ثم متجاوران في الدنيا إلا وبينهما جامع جلي أو خفي، أما التنافر المحض، فبعيد عن شنبك!!

مَقُولَةٌ وَبَيَان

أما المقولة، فهي ذي:

"ما من محب إلا وفيه خوف، أو يعدَم الأدب؛ لما تورثه المحبة من البسط، ولا خائف إلا وفيه حب، أو يعدم الرجاء؛ لما يورثه الخوف من القبض، وإنما يفترقان بما غلب!"

وهذا بيانها:

أعني أن الحب المحض يورث الألفة، والألفة ترفع الحشمة، وربما أفضى ذلك إلى ما لا يحمد في القول والفعل.

وكذلك فإن الخوف المحض آيل بصاحبه لا محالة إلى القنوط لولا أثارة من محبة تكون، فتهدهد النفس، وتزيل وحشتها بما تبعث فيها من ألفة الحبيب المهيب.

فمن غلب حبُّه خوفَه سموْه محبًّا، "وبعض الخوف يقبضه".

ومن غلب خوفُه حبَّه قيل فيه: خائف، "وبعض الحب يبسطه".

فلا بد من القدمين، فإن العالم مبناه على الزوجية، لانفراد الألوهية برتبة الواحدية، والله أعلم.

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى

كتب صاحب لي أديب:

"للعلامة ابن عاشور كلامٌ حسن جدًّا في بيان معنى الشرط. يقول: وَجُمْلَةُ ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ الْمُعَلَّلَةِ وَعِلَّتِهَا، وَهَذَا الِاعْتِرَاضُ مَنْظُورٌ فِيهِ إِلَى الْعُمُومِ الَّذِي اقْتَضَاهُ حَذْفُ مَفْعُولِ ﴿فَذَكِّرْ﴾، أَيْ: فَدُمْ عَلَى تَذْكِيرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى جَمِيعَهُمْ، أَيْ: وَهِيَ لَا تَنْفَعُ إِلَّا الْبَعْضَ، وَهُوَ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ الْآيَة.

فَالشَّرْطُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ، وَلَيْسَ مُتَعَلِّقًا بِالْجُمْلَةِ وَلَا تَقْيِيدًا لِمَضْمُونِهَا، إِذْ لَيْسَ الْمَعْنَى: فَذَكِّرْ إِذَا كَانَ لِلذِّكْرَى نَفْعٌ، حَتَّى يُفْهَمَ مِنْهُ بِطَرِيقِ مَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ أَنْ لَا تُذَكِّر إِذَا لَمْ تَنْفَعِ الذِّكْرَى؛ إِذْ لَا وَجْهَ لِتَقْيِيدِ التَّذْكِيرِ بِمَا إِذَا كَانَتِ الذِّكْرَى نَافِعَةً؛ إِذْ لَا سَبِيلَ إِلَى تَعَرُّفِ مَوَاقِعِ نَفْعِ الذِّكْرَى، وَلِذَلِكَ كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ مُؤَوَّلًا بِأَنَّ الْمَعْنَى فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ فَيَتَذَكَّرُ مَنْ

يَخَافُ وَعِيدِ، بَلِ الْمُرَادُ: فَذَكِّرِ النَّاسَ كَافَّةً إِنْ كَانَتِ الذِّكْرَى تَنْفَعُ جَمِيعَهُمْ، فَالشَّرْطُ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّشْكِيكِ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الشَّرْطِ بِـ (إِنْ) أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مَقْطُوعٍ بِوُقُوعِهِ، فَالدَّعْوَةُ عَامَّةٌ، وَمَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي قَبُولِ الْهُدَى وَعَدَمِهِ أَمْرٌ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ؛ فَأَبُو جَهْلٍ مَدْعُوٌّ لِلْإِيمَانِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، لَكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخُصَّ بِالدَّعْوَةِ مَنْ يُرْجَى مِنْهُمُ الْإِيمَانُ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَالْوَاقِعُ يَكْشِفُ الْمَقْدُورَ.

وَهَذَا تَعْرِيضٌ بِأَنَّ فِي الْقَوْمِ مَنْ لَا تَنْفَعُهُ الذِّكْرَى وَذَلِكَ يُفْهَمُ مِنِ اجْتِلَابِ حَرْفِ إِنِ الْمُقْتَضِي عَدَمَ احْتِمَالِ وُقُوعِ الشَّرْطِ أَوْ نُدْرَةَ وُقُوعِهِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ بَعْدَهُ بِقَوْلِهِ: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى؛ فَهُوَ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ نَاشِئٌ عَنْ قَوْلِهِ: فَذَكِّرْ وَمَا لَحِقَهُ مِنَ الِاعْتِرَاضِ بِقَوْلِهِ: إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى الْمُشْعِرِ بِأَنَّ التَّذْكِيرَ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ الْمُذَكَّرِينَ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَنْفَعُ أَوْلِيَائِي وَلَا تَنْفَعُ أَعْدَائِي، وَفِي هَذَا مَا يُرِيكَ مَعْنَى الْآيَةِ وَاضِحًا لَا غُبَارَ عَلَيْهِ وَيَدْفَعُ حَيْرَةَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَأْوِيلِ مَعْنَى إِنْ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى تَقْدِيرِ الْفَرَّاءِ وَالنَّحَّاسِ: إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى وَإِنْ لَمْ تَنْفَعْ، وَأَنَّهُ اقْتَصَرَ عَلَى الْقَسَمِ الْوَاحِدِ لِدَلَالَتِهِ عَلَى الثَّانِي" اهـ.

فكتبت تعليقًا:

حاصل كلام الشيخ ابن عاشور أن الشرط "اعترض" تنبيهًا على قلة من ينتفع بالذكرى من مجموع من يُدعى، قال: "وَهَذَا تَعْرِيضٌ بِأَنَّ فِي الْقَوْمِ مَنْ لَا تَنْفَعُهُ الذِّكْرَى، وَذَلِكَ يُفْهَمُ مِنِ اجْتِلَابِ حَرْفِ (إِنِ) الْمُقْتَضِي عَدَمَ احْتِمَالِ وُقُوعِ الشَّرْطِ أَوْ نُدْرَةَ وُقُوعِهِ". والحق أن الشيخ وقف بالشرط حيث كان يحسن إتمام المسير، وذلك بأن يقال إن المراد به "الذم"، لا "محض التقليل"؛ لأن القلة لا تُذم مطلقًا:

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها: إن الكرام قليل!

كما أن الكثرة لا تُمدح مطلقًا: "وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله"، فلزم البيان. والعجب أن الشيخ نبه على وقوع هذا البيان في قوله: "وَلِذَلِكَ جَاءَ بَعْدَهُ بِقَوْلِهِ: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى؛ فَهُوَ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ"، غير أنه رآه بيانًا لقلة من أجاب عددًا، ورأيته بيانًا لنوع من أجاب وصفًا، ولفظ القرآن شاهد لي: "سيذكر من يخشى"، آلخشية وصف أم عدد؟ وكذلك "من"، فإن بناءها على الإفراد لفظًا مشعر بأن النظر في العدد غير مراد. والله أعلم.

مُثَاقَفَةٌ

"وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى"

كتب صاحب لي في قوله تعالى "ووجدك ضالًّا فهدى"، يقول:

"لم أجد في تفسير هذه الآية الكريمة قولًا يشفي غلتي، وترتضيه نفسي إلا قول البطليوسي رحمه الله في كتابه (الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف)، يليه قول الإمام محمد عبده في (تفسير الفاتحة وجزء عم)" ثم حكى كلام البطليوسي بنصه، فكان مما جاء فيه بعدما حكى أقوالًا غير مرضية في تفسير الآية:

"والقرآن العزيز قد كفانا هذا كله بقوله عز وجل في سورة يوسف عليه السلام: "نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين"، فهذا نص جليّ في شرح ما وقع في تلك الآية من الإبهام، وبيّن أيضًا أنه تعالى إنما أراد الضلال الذي هو الغفلة كما قال في موضع آخر:"لا يضل ربي ولا ينسى"؛ أي لا يغفل، وقال تعالى:"أن تضل إحداهما فتُذكِّر إحداهما الأخرى"؛

أي تغفل وتنسى. وقالت الصوفية: معناه ووجدك محبًّا في الهدى فهداك، فتأولوا الضلال هنا بمعنى المحبة، وهذا قول حسن جدًّا، وله شاهد من القرآن واللغة، أما شاهده من القرآن فقوله تعالى فيما حكاه من قول إخوة يوسف لأبيهم إنما أرادوا بالضلال هنا إفراط محبته في يوسف عليه السلام وعلى جميعهم. وأما شاهده من اللغة فإنه جائز في مذاهب العرب أن تسمِّي المحبة ضلالًا لأن إفراط المحبة يشغل المحب عن كل غرض ويحمله على النسيان والإغفال لكل واجب مفترض، ولذلك قيل: الهوى يعمي ويصم، فسميت المحبة ضلالًا إذ كانت بسبب الضلال على مذاهبهم في تسمية الشيء باسم الشيء إذا كان منه بسبب".

فكتب صاحب آخر[1]: الفقيرُ الكَسيرُ يَفهَمُ هذه الآيةَ بأختِها: "ما كُنتَ تَدْري ما الكِتابُ ولا الإيمان"، ولعلّه قريبٌ مما ذكره العلامة البطليوسي- رحمه الله- من تفسيرها بآية يوسُفَ عليه السلامُ، أمّا ما ساقَه من تفسير الصوفيّة، واستحسَنه جدًّا فعجيبٌ جدًّا، وما مرّ بي قبل! وتأمُّل السِّباق "يتيمًا" واللَحاق "عائلًا" يرجّح خلافَ ما ذَهبوا

(1) هو الأستاذ الأديب أحمد مجدي قطب، المعيد بقسم النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

إليه، وليس هو بغاضٍّ مِن قدْره الشّريف المُنيف صلواتُ الله عليه وعلى آله! والعِلمُ عندَ الله.

فكتبت إليه: بل لو تأملت أنت "السباق واللحاق" تخريـجًا على ما بينـهما لرجحت ما ذهبوا إليه- رضي الله عنهم- من بديع القول، فأما "اليتم" فالتفرد، كما يقال في الجوهرة لا يعرف لها نظير: يتيمة، وأما "العيلة" فالفقر في معناه العالي، وهو لازم العبودية، بل هو محضها على ما قاله الشيخ ابن عطاء الله: "العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره"، فهو هذه الضرورة التي هي لازم المعرفة، وعلى هذا، فالمعنى: وجدك منفردًا في الموجودات فأفردك له، ووجدك مغيبًا في محبته فأقامك في حضرة الخطاب بالوحي، ووجدك متلبسًا بفقر عبوديتك له، فأسبغ عليك غنى ربوبيته لك، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فكتب إليّ: سيدي أبا محمد! أترونَ نفاسةَ المعاني وصحتَها في نفسِها مسوِّغةً حملَ الآيات عليها وصرفَ النظر عن مجموع مقاصدها؟ كيف وقد قابلَ اللهُ سبحانه هذه الثلاثَ "اليُتم"، و "الضلال"، و"العَيلة " المُمتَنَّ فيها بثلاثٍ مِثلِها؛ تعليمًا لحبيبِه سيِّدِنا- صلواتُ الله عليه- أن

يَقتدِيَ به في إحسانِه إليه؟ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، فقد كنتَ يتيمًا فآواك، ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فقد كنتَ عائلًا، وفي قراءةٍ: عَديمًا! فأغناك، "وأما بنعمة ربكَ فحدِّث" فإنه قد هداك! وذكرَها- سبحانه- هنا آخِرًا لشرفِها بطريق الترقِّي. وهذه الأخيرة هي الجامعةُ الفاذّة التي لمْ تغادرْ نعمةً دينيةً إلا أوعَتْها؛ فما المُحْوِجُ إلى التشقيق وعطفِ عِنان غَيرِها عليها، فتخلو الآيات من فضل الإنعام الدنيويّ؟ على أنّ وصفَ اليُتم- مثلًا- في حمْله على ظاهره إشارةٌ لطيفة إلى بَراءته من حُقوق المَخلوقين؛ بنحو ما حُكيَ عن الإمام الصادق عليه السلام؛ فلن نعدمَ إذًا لطائفَ الإشارات بجَرْيِنا على ما تواترَ عليه المفسِّرون، وتركِنا ما ترَكوا مع الوُقوف عليه، بل ما وصفَه بعضُهم- كجار الله الزمخشريّ- بـ"بِدَع التفاسير"!

وأذكُرُ- استطرافًا- ما وقفتُ عليه في تفسير "مَجْمَع البيان" لأبي عليٍّ الفضْل بن الحُسَين الطَّبَرْسِيّ، وهو من تفاسير الشِّيعة-:

"روى العياشي بإسناده عن أبي الحسن الرِّضا عليه السلام في قوله:﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ ، قال: فَرْدًا لا مِثلَ لك في المخلوقين، فآوَى الناسَ إليك. ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي: ضالّةً في قوم لا يَعْرِفون فضلك، فهداهم إليك. ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ تَعُولُ أقوامًا بالعِلْم، فأغناهم بك" اهـ

فكتبت إليه: قد علمتُ أنك قائل قريبًا مما قلت! وفي كلامك أمران: خاص وعام. فأما الخاص، فما ذهبت إليه من رد الأواخر على الأوائل، وتفسير ما تقدم بما تأخر، ولست أنكر عليك شيئًا من هذا في عمومه، فإني أحفظ قول أبي الدرداء رضي الله عنه: "إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى في القرآن وجوهًا" رواه ابن سعد وغيره، لكن ما فعلت يا مولانا غير ملزم، وما أعلمه من شروط التفسير، وإنما هو ضرب من الاستحسان شغلك فيه توافق المقابلات عن التماس الحسن في غيره. وحتى هذه لم تسلم لك السلامةَ كلها؛ إذ لم يجر التقابل على ترتيب الآي، وقد تكلفتَ، فجعلت التحديث بالنعمة مقابل ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ ، ثم استدركت، فجعلتها- وصدقت- "الجامعةُ الفاذّة التي لمْ تغادرْ نعمةً دينيةً (ولا دنيوية) إلا أوعَتْها"، وقد كان من تمام مذهبك أن تبين اختلاف الترتيب، ما سببه؟ وإذا كان تأخير آية التحديث بالنعمة مسوَّغًا بما ذكرت، فما الذي سوّغ- في البلاغة- تقديم آية "ووجدك ضالًّا فهدى" على قوله سبحانه: "ووجدك عائلًا فأغنى" مع أن مقابلاتها على خلاف ذلك؟ وكذلك لم ترَ السائل إلا طالب المال، مع أن السؤال "محض الطلب"، وليس في القرآن "يسألونك" إلا ومتعلَّقها العلم! وأما العام في

قولك فإرادتك إياي وكلَّ من تعرض للقرآن نظرًا وتأويلًا على أن نقف عند ما أسميته "تواتر المفسرين"، وهذا مصطلح يُعقل معناه، ولا تُدرك حقيقتُه؛ لأن حاصله الاقتصار على ما ذكره مشاهير المفسرين رضي الله عنهم ونفعنا بعلمهم، فما أرى- يا مولانا- في هذه إلا أن "لفظها أوسع من معناها"! على أن تفسير القرآن لا يُطلَب في كتب التفسير وحدها! ولقد كنت اجتهدتُ في تأويل الآيات الكريمة اقتباسًا من طريقة القوم، ولم أكن- علم الله- نظرت في كلام الطبرسي، وبعدما قرأت كلامك بدا لي أن أنظر في بعض التفاسير، وإليك طرفًا مما وجدت، وكله عن القرطبي رحمه الله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾، قال: "... وعن مجاهد: هو من قول العرب: درة يتيمة، إذا لم يكن لها مثل. فمجاز الآية: ألم يجدك واحدًا في شرفك لا نظير لك، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك." اهـ فقد وقع حافري- والحمد لله- على حافر إمام المفسرين مجاهد رضي الله عنه في شطر ما قال، أما ما خالفته فيه من قولي "فأفردك له"، فيسعده في القرآن قول الله تعالى لكليمه على نبينا وعليه الصلاة والسلام:"واصطنعتك لنفسي".

(2) ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾، قال: "... وقيل: ووجدك محبًّا للهداية فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى المحبة، ومنه قوله تعالى:﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾[يوسف: 95]؛ أي في محبتك. قال الشاعر:

هذا الضلال أشاب مني المفرقا — والعارضين ولم أكن متحققا

عجبًا لعزة في اختيار قطيعتي — بعد الضلال فحبلها قد أخلقا"

وليس هذا خارجًا عن قولي: "ووجدك مغيبًا في محبته فأقامك في حضرة الخطاب بالوحي"، غير أن عبارتي أشبه بطريقة القوم في الإبانة عن معانيهم، والحاصل هو هو.

(3) ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾، قال:"...وقال ابن عطاء: ووجدك فقير النفس، فأغنى قلبك".

(4)﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ ﴾، قال: "... وقيل: المراد بالسائل هنا، الذي يسأل عن الدين، أي فلا تنهره بالغلظة والجفوة، وأجبه برفق ولين، قاله سفيان. قال ابن العربي: وأما السائل عن الدين فجوابه فرض على العالم على الكفاية، كإعطاء سائل البر سواء. وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث، ويبسط رداءه لهم، ويقول: مرحبًا بأحبة رسول الله ﷺ" اهـ.

فلعلك قنعت الآن- يا صاحبي- أن ما أوردته في تفسير الآيات ليس من "بدع التفاسير"، والحمد لله رب العالمين.

فكتب إليّ: متّع اللهُ بكم سيدي أبا محمد! سألتم عن وجه تقديم ذِكر الهِداية على الإغناء أوّلًا، وعكسِ مقابلهِما آخِرًا. فأمّا الجوابُ عن الآخِرة فتقدّمَ، وهو رعاية الترقّي إلى الأشرف، وأمّا الأُولى فبالنظَر إلى زمان إفاضةِ النِعَم! قال العلامةُ الأثيرُ أبو حيّان رحمه الله في "بَحْرِه":

"وَيَظْهَرُ أَنَّهُ لَمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُ الِامْتِنَانِ عَلَيْهِ بِذِكْرِ الثَّلَاثَةِ أَمَرَهُ بِثَلَاثَةٍ: فَذَكَرَ الْيَتِيمَ أَوَّلًا وَهِيَ الْبِدَايَةُ، ثُمَّ ذَكَرَ السَّائِلَ ثَانِيًا وَهُوَ الْعَائِلُ، وَكَانَ أَشْرَفُ مَا امْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِ هِيَ الْهِدَايَةَ؛ فَتَرَقَّى مِنْ هَذَيْنِ إِلَى الْأَشْرَفِ وَجَعَلَهُ مَقْطَعَ السُّورَةِ.

وَإِنَّمَا وَسَّطَ ذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِ الثَّلَاثَةِ؛ لِأَنَّهُ بَعْدَ الْيَتِيمِ هُوَ زَمَانُ التَّكْلِيفِ، وَهُوَ- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ!- مَعْصُومٌ مِنَ اقْتِرَافِ مَا لَا يُرْضِي اللَّهَ- عَزَّ وَجَلَّ!- فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْعَقِيدَةِ، فَكَانَ ذِكْرُ الِامْتِنَانِ بِذَلِكَ عَلَى حَسَبِ الْوَاقِعِ بَعْدَ الْيَتِيمِ وَحَالَةِ التَّكْلِيفِ، وَفِي الْآخِرِ تَرَقَّى إِلَى الْأَشْرَفِ، فَهُمَا مَقْصِدَانِ فِي الْخِطَابِ" اهـ

وأحسنتم إذْ نبّهتم على عموم مَعنى السؤال "وأمّا السائلَ فلا تنهرْ"، ورمقتُم فيه سَماءَ العِلم! وعلى هذا تكون الآية مقابلةً لذِكر الهِداية بالوحْي والإيمان!

ورأيتم نسبتي إلى تحجير الواسع بإرادتي الاقتصار على ما جرى عليه السادةُ المفسِّرون-رضيَ اللهُ عنهم، وعنّا بهم!- فأينَ وجدتم هذا في كلامي- أحسَنَ اللهُ إليكم-؟ وما زدتُ على أن قلتُ: "فلن نعدمَ إذًا لطائفَ الإشارات بجَرْينا على ما تواترَ عليه المفسِّرون، وتركِنا ما ترَكوا مع الوُقوف عليه"؛ فكان في إثبات وِجدان اللطائف على ما شايعوه، مع عِلمِهم بغَيره وعدَم التعويل عليه!

فإذا يمّمْنا ما قال العلامةُ القرطبيّ- رحمه الله- وجدْنا حكايتَه عن مجاهدٍ- رحمه الله- بغير إسناد، وليست هي ما اعتمدَ في تأويل الآية، بل استطردَ إليها طلبًا لحشْد الوُجوه كما هو دأبُه، وقد أحسَنَ! كذلكم ما سقتم من كلامه في تأويل الضلال، فضْلًا عن كونه مصدّرًا بالتمريض "قيل" المُشعِر بتضعيفه إيّاه. وأمّا قول ابن عطاء في "فقْر النفس وغِنى القلب" ففي مَعنى ما سلَفَ، و "ليسَ الغِنى عنْ كثرة العَرَض".

ولئن كان جنسُ إشاراتكم عند "جار الله" من البِدَع، لهيَ بدعٌ حسنة، ولا أرى الحاملَ عليها سوى فرْطِ التولُّه وغاية الإجلال لصاحب الجَناب الشريف- روحي لهُ الفِداء!- وهي ممّا به يؤتَنَس، ولِلَطافَة وَقعِها تُلتَمَس! فكيف إذا زُفّت إليها عرائسُ بيانِكم، وتحلّت بوشْي افتنانِكم! ألا دمتم مؤيّدين!

فكتبت إليه: أكرمك الله، لا أحب أن أثقل عليك، فليكن هذا ختام قولي في المسألة، ثم أنا سامع منك بعد ذلك ما شئت على جهة التعلم، واجتناء الفوائد من أهل الفضل.

أما قولك في التأويل: "بالنظَر إلى زمان إفاضةِ النِعَم" فحسن بسن، غير أنه لا يمنع الخروج عن مراعاة الترتيب بين المتقابلات، وهو الذي بنيت عليه نظرك في الآيات، وجعلته سبيلًا إلى ترجيح ما رجحت، فإذا استجزت تأويل العدول عن الأصل الذي ارتضيته في موضع لمعنى، ففيم إنكار العدول عن هذا الأصل جملة إذا ترجح غيره عند غيرك؟!

ثم قد رأيت أني نسبت إليك "تحجير الواسع"، ولستَ منه، وهذه عقيدتي فيك على العموم، غير أن كلامك ههنا مُشْعر بما ذكرتُ، وهذا هو:

سألتَ أولًا:"أترونَ نفاسةَ المعاني وصحتَها في نفسِها مسوِّغةً حملَ الآيات عليها وصرفَ النظر عن مجموع مقاصدها؟".

ثم أنكرتَ ثانيًا:"كيف وقد قابلَ اللهُ سبحانه هذه الثلاثَ "اليُتم"، و"الضلال"، و"العَيلة"المُمتَنَّ فيها بثلاثٍ مِثلِها؛ تعليمًا لحبيبِه سيِّدِنا صلواتُ الله عليه أن يَقتدِيَ به في إحسانِه إليه؟".

ثم عدتَ إلى الإنكار ثالثًا بعد التفصيل والبيان، فقلت:"فما المُحْوِجُ إلى التشقيق وعطفِ عِنان غَيرِها عليها، فتخلو الآيات من فضل الإنعام الدنيويّ؟".

ثم تلطفتَ في الخطاب رابعًا إيناسًا لمن تناظر حتى "تعطف عنان قلبه إليك"- وهذا من أصول المناظرات، ولا يحسنه إلا الحذاق- فقلت: "على أنّ وصفَ اليُتم- مثلا- في حمْله على ظاهره إشارةٌ لطيفة إلى بَراءته من حُقوق المَخلوقين؛ بنحو ما حُكيَ عن الإمام الصادق عليه السلام"، وذلك لما علمت من تولهي بآل البيت عليهم السلام، ثم بباب الإشارات في التأويل جملةً.

ثم تخلصتَ خامسًا إلى ما تريد تعريضًا، فقلتَ: " فلن نعدمَ إذًا لطائفَ الإشارات بجَرْيِنا على ما تواترَ عليه المفسِّرون، وتركِنا ما ترَكوا مع الوُقوف عليه، بل ما وصفَه بعضُهم -كجار الله الزمخشريّ- بـ "بِدَع التفاسير!" فكأنك تقول لي: لتلزم ما اتفق عليه المفسرون، وسوف تجد في بعض ذلك ضالتك من الإشارات والرقائق، ودع عنك ما تركوه- مع علمهم به- لكيلا يفضي بك ذلك إلى الابتداع!

ثم رجعتَ إلى التنفير أخيرًا بما حكيته عن "الطبرسي"، ولم تنس النص على تشيعه، مع أن غالب ظنك علمي بذلك!

فهل رأيت، يا صاحبي، في باب التحريض أدخل في البراعة من هذا؟!

ولعلك واجد في بعض ما ذكرتُ معاني لم تمر بخاطرك عند الكتابة، ولا عجب فبعض البراعة طبع، وبعضها عقل، وبعضها علم، وبعضها إلهام!

وأما ما ذكرتَه من عدم الإسناد إلى مجاهد، فلا حجة فيه؛ لأني ما أوردت قوله رضي الله عنه إلا استئناسًا، لا استشهادًا ولا احتجاجًا، ومثل هذا يقال في عدم اعتماد القرطبي رحمه الله إياه، بل في كل ما نقلته في هذا الشأن؛ إذ كله استئناس، ليس غير!

وأما القول في تأويل الضلال، وأن القرطبي رواه "مصدّرًا بالتمريض (قيل) المُشعِر بتضعيفه إيّاه"، فلا يسلم لك؛ لأنه لما فرغ من إيراد الأقوال في معنى "ووجدك ضالًّا فهدى"، وأكثرُها مروي بصيغة التمريض، قال: "قلت: هذه الأقوال كلها حسان"، ثم رجح أحدها ذاكرًا مقتضى الترجيح.

وأما قول ابن عطاء، فلو فسرت الغنى فيه بـ "غنى النفس"، فلن يواتيك تفسير قوله الأول "ووجدك فقير النفس" إلا بما لا يليق بجناب سيدنا رسول الله ﷺ، وبما لم يكن، لا قبل النبوة ولا بعدها. على أني لم أورده إلا استئناسًا كما أسلفت. والله تعالى أعلى وأعلم.

قال صاحبي: للهِ أبوكُم، أبا مُحَمّد! هل تركتُم لي مَقالًا؟! ولا أدري أيّة نوبةٍ أصابتني إذ قرأتُ تحليلَكم، فما بَرِحَني الضّحِكُ ولا انكفّ العَجَب!

رَأْيٌ!

أرسل إلي بعض الفضلاء طائفة من أشعاره، وسألني رأيي، فكان هذا بعض جوابي:

الأديب الشاعر/ ....

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قد كنت أود أن أطالع جميع أعمالكم الشعرية والعلمية لأفيد منها، ولأطرب بما فيها لولا أن ذلك صادف وقتًا تكاثرت عليّ فيه مطالب البحث والدرس، فحالت دون كثير مما تشتهيه نفسي، فلله الأمر من قبل و من بعد!

و مع هذا فقد ألممت بطائفة من شعرك الذي أرسلته إليّ، فرأيت طبعًا حرًّا، و ملكةً أصدقُ ما يقال فيها ما قيل قديمًا في أبي العتاهية: "كان يتكلم شعرًا!"، فما أشك في أن بناء الشعر لا يكلفك شيئًا، فأنت لا تسعى إليه ولا تطرق بابه، بل هو الذي يسعى إليك ويطرق بابك،

وإذا أنت تكتب دون توقف، لا تثنيك عن المضيّ فكرة عصيّة، و لا قافية أبيّة، فإذا شئت كنت من أصحاب المطولات!

كل هذا بشير خير بلا شك لو تحاشيت خطره، وخلاصة هذا الخطر أن لا يُسعد الطبع صناعةٌ تنفي عنه شين السذاجة، وقرب المورد، كما أنه لا بد لكل يد صانع من طبع يحُسِنُ إعمالها لئلا يغلب التكلف في استجلاب الحسن، فإنه إذا غلب استوجب الهجنة، وأنكره كل ذي رأي سليم.

كتب الله لك التوفيق، وسدد قلمك!

نَظَـــرَاتٌ
فِي قَصِيدَةِ أَبِي صَخْرٍ الهُذَليّ

قال أبو صخر الهذلي:

أَمَا والذي أَبْكَى وأَضْحَكَ، والذي ... أَماتَ وأَحْيا، والذي أَمْرُه الأَمْرُ

لَقَدْ كنْتُ آتِيها وفي النَّفْسِ هَجْرُها ... بَتاتًا لأُخْرَى الدَّهرِ ما طَلَعَ الفَجْرُ

فما هُوَ إلا أنْ أَرَاها فُجَاءَةً ... فَأُبْهَتَ؛ لا عُرْفٌ لَدَيَّ ولا نُكْرُ

وأَنْسَى الذي قد كُنْتُ فيهِ هَجَرْتُها ... كما قد تُنَسِّي لُبَّ شاربِها الخَمْرُ!

وإنِّي لَتَعْرُوني لِذِكْراكِ هِزَّةٌ ... كما انْتَفَضَ العُصفُور بَلَّلَهُ القَطْرُ!

تَكادُ يَدِي تَنْدَى إذا ما لَمَسْتُها ... وتَنْبُتُ في أَطْرافِها الوَرَقُ الخُضْرُ!

لقد تَرَكَتْنِي أَغْبِطُ الوَحْشَ أَن أَرَى ... أَلِيفَيْنِ مِنْها لا يَرُوعُهُما النَّفْرُ!

هَجَرْتُكِ حتى قِيلَ: لا يَعْرِفُ الهَوَى ... وزُرْتُكِ حتّى قِيلَ: ليسَ لهُ صَبرُ!

صَدَقْتِ! أنا الصَّبُّ المُصاب الذي به ... تباريحُ حُبٍّ خامرَ القلبَ أو سِحْرُ

فيا حبّذا الأَحْياءُ ما دُمْتِ حيَّةً ... ويا حبّذا الأَمْواتُ ما ضَمّكِ القبْرُ!

فيا حُبّ لَيْلَى قد بَلَغْتَ بِيَ المَدَى وزدتَ على ما لَمْ يكُنْ بَلَغَ الهَجرُ!

ويا حُبَّها زِدْنِيَ جَوًى كلَّ لَيْلَةٍ ويا سَلْوَةَ الأيامِ مَوْعِدُكِ الحَشْرُ!

عَجِبْتُ لسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْـني وبَينها فلمَّا انْقَضَى ما بَيْنَنا سَكَنَ الدَّهْـرُ

النظرات: تأمل براعة الاستهلال بالقسم الدال على تنوع الأحوال، فهو بين الهجر والوصل متقلب بين البكاء والضحك، وبين الموت والحياة، مقهور تحت سلطان الأقدار! فلذلك افترع القصيدة بهذه الأقسام.

وفي البيت الثاني "لوعة المستلَب"، وإلا فما أتى به إليها إذا كان قد أزمع هجرها-زعم- "بَتاتًا لأُخْرَى الدَّهْـــرِ ما طَلَعَ الفَجْرُ"؟!

وفي البيت الثالث مقالة حق، وهي أن "الفجاءة تورث البهت"!: "فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم"، وقد نظر الصوفية إلى هذا المعنى، فقالوا بعذر من شطح في فنائه؛ لأنه "لا عرفٌ لديه ولا نكرُ"!

وقوله: "وإني لتعروني.." يذكّرني بقول بعض الصوفية أيضًا:

إذا اهتزت الأرواح شوقًا إلى اللقا تحركت الأجساد يا جاهل المعنى!

وفي البيت التالي إشارة إلى أن الحياة تكون حيث يكون الحب، فما نبت الورق الخضر إلا في "موطن التلاقي"! وإليه الإشارة بقول أحدهم:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرًا من يابس الصخر جلمدا!

وذكره الوحش تنبيه على معنى "التأبُّد" في الحب، وهو طلب الاعتزال بالحبيب. يفسره ما جاء في بعض الأخبار: "كذب من ادعى محبتي، فإذا جن عليه الليل لم يقم بين يدي"، وجهه أن الليل في حركة الزمان رمز الغيب، كما أن النهار رمز الشهادة؛ فلذلك مال المحبون إلى الليل دون النهار للمناسبة؛ فإن الحب "غيب"، وما يبدو على المحبين مظاهره لا عينه، فتأمله!

ويلوح أن قوله "أنا الصب.." كالاعتذار عما ورد في البيت الذي يليه؛ وذلك أنه جعل ما به إما تباريحَ حب مخامر وإما سحرًا، والجامع بينهما هذه "الأخذة" التي تسلب المرء لُبَّه، وتعدل به عن سنن الرشد، وإلا فما كان ينبغي أن يذكر في معرض الحب والشوق "قبرًا وأمواتًا"، وقد يعتذر عنه بغير هذا، وليس الخليُّ كالمليّ!

مُبَاحَثَةٌ مَعَ الزَّمَخْشَرِيّ

قال الإمام جار الله الزمخشري رحمه الله في تفسير قولِه تعالى: "فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي": "فإن قلتَ: ما وجهُ التذكير في قَوْلِه ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ والإشارةُ للشمس؟ قلتُ: جَعَلَ الْمُبْتَدَأَ مِثْلَ الْخَبَرِ بِكَوْنِهِمَا عِبَارَةً عَنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ؛ كَقَوْلِهِمْ: مَا جَاءَتْ حَاجَتُكَ، وَمَنْ كَانَتْ أُمُّكَ، و﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ ، وَكَانَ اخْتِيَارُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاجِبًا لِصِيَانَةِ الرَّبِّ عَنْ شُبْهَةِ التَّأْنِيثِ. أَلَا تَرَاهُمْ قَالُوا فِي صِفَةِ اللَّهِ: عَلَّامٌ، وَلَمْ يَقُولُوا عَلَّامَةٌ، وَإِنْ كَانَ الْعَلَّامَةُ أَبْلَغَ، احْتِرَازًا مِنْ عَلَامَةِ التَّأْنِيثِ؟" اهـ

فكتبت تعليقًا:

فيما قاله الزمخشري إشكال، حاصله أن قولنا في الله تعالى "علام" دون "علامة" بعضُ الوصف، لا جميعُه، إذ لا أعلم أحدًا يذكره إلا مضافًا إليه لفظ "الغيوب"، فيقال "علام الغيوب"، وهذه إضافة إلى "أنواع الغيوب" على إطلاقها، فهل ترى وراء ذلك مرمى لرام، أو غايةً لقاصد؟ أعني أبقِي شيء هو مظنة العلم فات هذا الوصف حتى تحيط به كلمة "علامة" دونه، وهي التي لا تَرِدُ وصفًا إلا مفردةً غير مضافة؟

بل أخبرني- وصلتْك رحمٌ- أيهما أدل على الإحاطة التي هي غاية المبالغة: "علام الغيوب" أم "علامة"؟!

قد علمت أن الوصف بـ"علامة" لا يمنع فوات شيء من العلم، بخلاف "علام الغيوب"، فإنه كما يقول المناطقة "جامع مانع"، وليس يخفى عليك أنه لذلك جرت الأولى في وصف العباد دون الثانية.

وإنما عَمَّى الزمخشري بإيراده لفظة "علام" مفردةً دون ذكر المضاف إليه، ليتخلص إلى مذهبه في "الاحتراز من علامة التأنيث"، ولا أقول: إنه فعل ذلك عامدًا، فإني ما شققت عن صدره، لكن حسن الطوية لا يمنع أن قوله: "أَلا تَرَاهُمْ قَالُوا فِي صِفَةِ اللَّهِ: عَلَّامٌ، وَلَمْ يَقُولُوا عَلَّامَةٌ، وَإِنْ كَانَ الْعَلَّامَةُ أَبْلَغَ" محضُ تلبيس؛ إذ المقارنة متعينة بين "علامة" و"علام الغيوب"، وحينئذ لا يسلم له أن سبب العدول "الاحتراز عن التأنيث"؛ فقد أتِي إذًا بنيانُه في هذا القياس من القواعد.

وثمة أمر آخر، وهو أن الشمس لا تؤنث في جميع اللغات، فهي في الفرنسية مثلًا مذكرة، ولعلها كانت كذلك في لغة الخليل عليه السلام، فروعي ذلك في حكاية القول، لكن هذا يحتاج إلى تحقيق، وهو فرض لا يخلو من طرافة، والله أعلم.

مَدَارِجُ الحُبّ

قال الشاعر:

أنتِ النّعيمُ لقَلبي وَالعَذابُ لَهُ … فَمَا أمَـرّكِ في قَلْبي وَأحْـلاكِ!

فجعل النعيم والحلاوة أطرافًا، والعذاب والمرارة وسطًا، وكأنما أراد يمثل لمدارج الحب، فهو في أوائله عين "النعيم" لانصراف القلب بالكلية إليه، وكمال التلذذ بالانكباب عليه، وهو في أوسطه مرارة "العذاب" لما يكون من صدود المحبوب، واتقاد نار الهوى أسفًا عليه، وهو في آخره "حلاوة" المصافاة بعد المجافاة!!

قال لي صاحبي: ليس ما ذكرته بلازم، فإنما تتباين منازل تلك التنزلات على حسب ظروف التجربة العاطفية، وطبيعة تحقق كل محب بنمط حبيبه، فليس من مانع أن يتقدم تنزل المرارة والجوى وصدود المحبوب عن بداية مؤانسته وكمال التعلق به، وليس ما يمنع من تقدم المجافاة على المصافاة، فحينها ينعكس التناسب الموهوم في ترتيب سياق البيت، فيصير مأتمًا ما قد تأوَّلناه فرحًا، فتأمله!

فأجبته: قولٌ سديدٌ، وحديث مجرِّب مبتلَى، لكنه مع ذلك لا يرد على مقالتي؛ لأنه ليس فيها أن "النعيم" الذي يكون في أول الحب منشؤه المصافاة بين الحبيبين، وإنما مرده إلى محض "انبثاق" هذه العاطفة في نفس المحب، فهو "لذة ذاتية" يبعثها في النفس إيذان وشيك بذلك التعارف المورِث للألفة المشارِ إليه في حديث: "ما تعارف منها ائتلف". وأما ما ذكرتَه من تقدم المجافاة، فيسميه أهل الفن "عسر النساء" المُومَى إليه في قول بشار: عُسْر النساء إلى مياسرة.. البيت، وهذا غير الصدود الذي يعقب المودة، فالأول إعراضُ مرتاب، والآخر "دَلُّ المحب"، وكل ذي غنج ذو دلال! على أن ما ذكرتُه إنما هو على الغالب من أحوال المحبين كما هي في الآداب والأشعار، وليس بلازم أن يطرد ذلك في كل موطن، والقواعد- كما تعلم- "أغلبية".

مُـوَازَنَة

قال شاعر:

تكلم منا في الوجوه عيوننا فنحن سكوت، والهوى يتكلم

وقال آخر:

والهــوى بيننا يسوق حديثًا طـيـبًـا مـطـربًـا بـغـير لسان

فبدا لي أن أوازن بين قوليهما، فكتبت:

الحق أني أوثر البيت الثاني على الأول؛ لما يلي:

أن المحب في البيت الثاني متحدثٌ بكله، وسكوتُه عن ذكر العيون لقصور اختصاصها بالذكر عن الوفاء بصفة حاله، فهو "نقص في الرتبة"، أعني أنه نقص في رتبتها هي في هذا الموطن عن القيام بحقيقة الحال. ألا ترى إلى العاشق كيف قال:

كلي بكلك مشغول عن البشر فكيف أنساك يا سمعي ويا بصري؟!

لو أن عيني إليك الدهرَ ناظرةٌ مضت حياتي ولم أشبع من النظر

أن كلام العيون في البيت الأول محتمل، فلعله عتب ولوم، وهما من العشق مرارته، بخلاف الحديث في البيت الثاني، فقد دل وصفه على أن المقام مقام إيناس ولطف، فهو حديث "طيبٌ" في نفسه، "مطرِبٌ" لمن يسمعه. وأما قوله "بغير لسان"، فزائدة خير، وحشو لَوْزِينَج؛ كقول الآخر "غير مفسدها"؛ وذلك أن لفظ الحديث موهم- على ما جرت به العادة- أن آلته اللسان، فكانت هذه الزيادة دفعًا لوهم العادة.

على أن الطريف حقًّا أنك إذا قرأت البيتين نسقا على هيئتهما في الكتابة تولد من مجموعهما حكاية حال ممتعة، لا يعكر عليها سوى اختلاف البحرين:

"تكلم منا في الوجوه عيوننا، فنحن سكوت والهوى يتكلم! والهوى بيننا يسوق حديثًا، طيبًا مطربًا بغير لسان".

شَجَرَةُ الخُلد

تأملت قوله تعالى حكايةً لما كان بين إبليس وبين أبينا آدم عليه السلام:﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ .

فإذا باب الشيطان في هذه الوسوسة "إرادة الخلود" عند أبي البشر عليه السلام، إذ لو لم يكن مطلوبًا له لما صح إغراؤه به، فإنما يُغرَى المرء بما يحب، فمن أين كان ذلك؟ أعني ما الذي أوقع حب الخلود في نفس أبينا آدم عليه السلام؟

وقع لي أنه بأثر من الدار التي أُسكنها أول أمره، وللبدايات أحكامٌ ليست لغيرها، وذلك أن الله عز وجلّ- أسكنه الجنة، و"الذي ذهب إليه جمهور السلف أنها جنة الخلد التي وعد الله المؤمنين والمصدقين رسله" (التحرير والتنوير)، فتمكنت صفةُ الدار في نفس ساكنها، ثم سرت إلى بنيه من بعده وراثةً، على نحو ما جاءت الإشارة إلى مثله في بعض الحديث:"... قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسي آدم، فنسيت

ذريته، وخطئ آدم، فخطئت ذريته"، رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وكأن المتنبي قد التفت إلى أثر السكنى في الساكن حين قال معللًا كراهية الموت:

إلفُ هذا الهواءِ أوقعَ في النفس أن الحِمَامَ مُرُّ المذاق!

وثمة إشارةٌ أخرى، وهي أن أبوينا لما أكلا من الشجرة بدت لهما سَوْءاتُهما، والبُدوّ ظهور خفيٍّ موجود، لا إيجادُ معدوم، وفيه من المعنى قولهم:"عدم علمك بالشيء ليس علمًا بعدمه"، فلم يكن عدمُ علم آدم وحواء بوجود السوأة أمارةً على عدم وجودها؛ ولذلك قال القرآن:"لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا" فعلَّق الأمر بهما، لدورانها عليهما.

وبدوُّ السوءة مؤذنٌ كذلك بتحرك الشهوة؛ لأن وظائف الأعضاء منوطةٌ باكتمال هيئاتها، وكل ما كان في أول إنسانيْن إنما وُجد مكتملَ الهيئة، لا بسبيل النمو والترقي.

ووجود الذرية فرع الشهوة؛ لأنه ثمرتها.

والذرية في صورة تفرعها تُشاكل الشجرة؛ ولذلك قيل في الأنساب: شجرة النسب، وهو مصطلح مستعمل كذلك في اللغات الأوروبية، فهذه المشابهة إذًا كلمة إجماع.

وكأن الأكل من الشجرة أثمر صورةً شجريةً في نفس الآكليْن، فانتشأت منها الفروع وفروع الفروع المسماة ببني آدم.

وكأن هذا هو الخلدُ المشار إليه في قول إبليس: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾، فإن من وُلد له فقد استبقى أثره، فهو خالد في ولده ما دام له ولد.

ولولا وجود الذرية ما تمكن الشيطان من إنفاذ وعيده في احتناكها، فلذلك قال ما قال، فأظهر الود وأضمر العداء، فكان إمامًا للمنافقين كما كان إمامًا للكافرين، والله أعلم.

مُثَاقَفَةٌ

التَّقْيِيدُ بِمَا تَضَمَّنَهُ المُقَيَّدُ

كتبت هذه الفائدة:

"في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، أرأيت إن لم يردن التحصن، وهو ههنا العفاف، أيجوز إكراههن؟ والجواب أن ذلك غير متصور؛ لأن الإكراه إنما يكون على ما ترغب النفس عنه، ومن رغبت عن التصون والعفاف من المذكورات فقد مالت إلى الفاحشة، فلا يتصور إكراهها عليها؛ لأن قلبها منعطف إليها".

فقال صاحب لي:

فما وجه التقييد إذًا، ما دام لا يتصور الإكراه في حال عدم إرادة التحصن وفي ظل الميل إلى عدم العفة والرغبة في الفاحشة؟ ثم ألم يكن الإطلاق والتقييد سواء في ظل هذه القرينة المعنوية؟

فكتبت إليه هذا الجواب:

في مواطن المحاججة والتقريع لا يُقتصر على الإشارة دون العبارة، ولا على ما بطن دون ما ظهر، والقرينة المعنوية قرينة باطنة، لا تدرك إلا بنوع تأمل لا يستطيعه كل أحد، ولا يقصد إليه كل مستطيع، ولا يبلغه كل قاصد، فالنص على انتفاء الرضا منهن، مع وقوع الإكراه لهن، إمعان في تبشيع صنيع من أكرههن، والله أعلم.

بين الفَقْر والغِنَى

قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾[الطلاق: 7]

فذكر- سبحانه- الغنيَّ، ووكله إلى غناه، ولما عرض للفقير تلطف به؛ جبرًا لخاطره، فقال:"وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ"، بالبناء لما لم يسم فاعله، فرد إليه سبحانه (القَدْر)، بسطًا لعذر من لا يجد؛ إذ لا حيلة له في الرزق، ثم أمره بالإنفاق "مِمَّا آتَاهُ اللهُ "، ولم يقل: مما أُوتي أو مِمَّا عنده، كما قال آنفًا في الغنيِّ: "مِنْ سَعَتِهِ"؛ وذلك تعظيمًا لقدر النعمة- وإن قلَّت- بإضافتها إليه سبحانه؛ إذ القليل من الله كثير! ثم أدَّب خلقه، فأخبرهم أنه- جل وعلا- مع كمال اقتداره لا يكلفهم ما لا يطيقون، فهم أحرى مع كمال عجزهم أن يتأدبوا بهذا الأدب فيما بينـهم، ثم ختم بِعِدَةِ التيسير، شرحًا للصدور، وتأنيسًا للنفوس أن تضل في مهامه القنوط.

فتأمل ما قسم الله من كلامه للغني، وما قسمه للفقير، تعرف منزلة كلٍّ!

لا جرم أن الفقر– في عموم معناه– لازمُ العبودية، وأن الغنى– في عموم معناه– لازمُ الربوبية؛ ولذلك قال العارف: "فإذا أغناك فقد أبعدك في غاية القرب، وإذا أفقرك فقد قربك في غاية البعد"(الفتوحات٤/ ٣٠٩).

فمن تحقق بمعرفة الفقر من نفسه، تحقق بمعرفة الغنى من ربه، وهذا أحد معاني ما روي: من عرف نفسه عرف ربه

لَطَائِف

قلتُ في دَرَج الحديث: "وللبدايات أحكام ليست لغيرها"، ثم بدا لي أن أجمع الشواهد عليها، فاتفق لي ما يلي:

وقع العقاب دون إنظار على أولِ مخالفةٍ لأمر.

وكان من أحكام الله أنَّ من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وأنَّ من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

ومن أَثَرِ ذلك أن أول قاتل عليه كِفلٌ مِن كلِّ قَتْلٍ يقع ظلمًا إلى يوم القيامة.

وفي الحديث: "فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم، فخطئت ذريته!"

وكانت معصية إبليس الأولى كبرًا أورث كفرًا، فما رأينا الله تعالى ذكر في القرآن أمة كفرت برسولها إلا نبّه على وصف الكبر فيها نصًّا، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ الآية، ونظائرها كثر.

وقد جاء في الحديث: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كبر"، وحدُّ الكبر "بطر الحق، وغمط الناس"، ولا بطرَ لحق أشنعُ مِن كُفْرٍ جليٍّ، ولا غمطَ لناسٍ أشدُّ من تكذيبِ نبيّ.

أولُ حب أوثقه! قال يزيد بن سلمة (ابن الطثرية):

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا!

وقيل: ليست الكتابة على المحو كالكتابة على البياض!، والتعليم في الصغر كالنقش في الحجر، وكل ذلك لأنه وقع أول.

وعوارض المنح تخلص للمبتدر، وحسبك دليلًا "سبقك بها عُكَّاشة".

يَا أَنَا!

نشرتُ كلمة عزوتُها إلى الرافعي؛ لأني وجدتها منسوبة إليه، وهي قوله:"لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن أن يقول أحدهما للآخر: يا أنا!"

فنبهني صاحب لي أديب إلى أن صحيح نسبتها إلى الإمام السَّرِيّ السَّقطِي رضي الله عنه، ثم ساق إليَّ قوله: "لا يكتمل العشق إلا إذا قال العاشق للمعشوق: يا أنا!"

فوجدت بين العبارتين بوْنًا؛ إذ "ليس سواءً تَوالهٌ ووَلَهْ!"، حملني على المقارنة بينهما:

أما قول الرافعي: "بين اثنين" ففيه إثبات التثنية، وتحقيق المغايرة في زمان القول، فكيف يستقيم بعد ذلك قوله: "يا أنا"؟!

تُراهُ إذْ ثنَّاهُ أبْقاهُ أمْ أفناهُ؟!

وقد قال الشيخ الأكبر قُدس سره:"من أثبت عينه وعينك، فرّق بينه وبينك".

وليس كذلك عبارة السري السقطي رضي الله عنه، فقد قال:"لا يكتمل العشق إلا إذا قال العاشق للمعشوق: يا أنا!"

فههنا ما ثم اثنان؛ لأن كليهما عاشق ومعشوق في آن، فمهما أجريت أحد الوصفين تنازعه الطرفان، فتأمله تجده في الذروة من البيان!

هذا وكلامنا ههنا محمول على ما يكون من المحبة بين المخلوقين.

لَذَّةُ السَّلَامَة

في حديث مع صاحب لي أديب، قلت له:"...ولست بحمد الله ممن يفرح إذا زلَّ غيرُه إلا ما يقعُ في النفس فطرةً من لذة السلامة!".

ثم قرأت فيما عرَضَ اليونانُ لشرْحه من "اللذة" المأساة رأيًا لُكْريس، وخلاصته أن مصدر هذه اللذة شعور الإنسان بالنجاء والأمن من مصائب يصلاها غيره، وهو بعيد عنها، كلذة الجالس على شاطيء البحر، يُبصر في عُرضه سفينةً تصارع الموج، وتكافح الخطر، وهو رخيُّ البال هادئ السر.

وفي العصر الحديث برع الروائي الروسي الشهير ديستويفسكي في تصوير هذه اللذة الخفية براعةً استوجبت ثناء فرويد.

على أن هذه العاطفة ربما رماها بالسوء بعضُ المتعجلين ظانًّا أن المروءة قاضية بعدم التلذذ بمصاب الآخرين، وهو ظن صحيح في نفسه، لكنه لم يصادف موضعه؛ لأن اللذة المذكورة متعلقُها "سلامة" الإنسان، لا "مصيبة" غيره، ولا معارضة بين هذا وبين قوله ﷺ:"من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"؛ لأن أمنك في نفسك لا يحول دون اهتمامك بغيرك.

ولست أدري لم حضرني حين تفكرت في هذا الأمر؛ هذا البيت:

ولـولا كـثـرةُ الباكين حولي على إخـوانهـم لقتلت نفسي

ثم بدا لي أنه مقلوب العاطفة السابقة.

كَلِمَاتٌ حِكْمِيَّة

- في فعل الخيرات: البِدار شِعَار، والصدق دِثَار، والمعرفة من وراء ذلك.
- مَعْدِنُ الحب واحدٌ، والناس تعلو به وتهبط، ويتفاوتون بجهة التعلق.
- الاستدراك في الحب غير مقبول، والنسيان غير مغفور.
- عوارض المنح تخلص للمبتَدِر، وحسبك "سبقك بها عُكَّاشة".
- مَطَالعُ النَّفْسِ على وِزَانِ مَطالِبِهَا.
- مما قرّ في نفسي أنَّ نصف عقلِ العاقِلِ معْرِفَتُهُ نَصيبَ جليسِهِ من العقل، فإذا حدثَهُ أجراه في مِضمَارِه، ولم يوردْهُ المهالك، وهذا نصفُ عقله الآخَرُ.
- قيل:"مَنْ مدحك بما ليس فيك، فقد سخِر منك"، قلت: فإن صدّقته فقد سخِرتَ من نفسك، وليس وراء ذلك في الحُمق شيء.

- أخبث عزاء: عزاء شامت. وأقبح اعتذار: اعتذار لائم. وأكذب حديث: حديث راغب أو راهب. وأخلص رجاء: رجاء صادق. وأرجى دعاء: دعاء مضطر.
- لم أزل أسمع بالسنوات الخداعات حتى رأيتها.
- دعت أم جريج الراهب على ولدها أن لا يموت حتى يرى وجه المومِسَات، تُرى: بأي شيء دعت علينا أمهاتنا حتى رأينا ما نرى؟!
- صُحبة الظالمين ظُلمْة، وأثقل الظلام ما لا انفكاك عنه!
- بعض الناس خير له وللناس ألا يفكر، وإذا فكر ألا يتكلم، وإذا تكلم ألا يجهر، وإذا جهر ألا يُسمع، وإذا سُمع أن يُسَفَّه، فمن اتبعه بعد ذلك فليس إلا من موافقة الشُّكُول، وههنا تنقطع الحيلة، فانفض يديك وسلِّم، فإن الأمور تجري بمقادير.
- من الناس من ابتُلي بالظلم حتى ألفه، فلما فقده افتقده.

العِلْمُ كُرِّيّ

قال بعض العارفين:"والعلم نتعلمه لنعمل به، فالعلم كُرِّيٌّ وليس بمستطيل".

فكتبت مجتهدًا في تأويلها:

ههنا تفصيل، حاصله أن العبارة ليست على إطلاقها، فما كل علم يطلب عملًا!

وأما ما كان من العلوم طالبًا للعمل، فإن عُمل به أورث صاحبه التقوى، وهذه تورثه علم الفرقان المشار إليه في قوله تعالى: "يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا"، وحينئذ يلحق صاحب هذا العلم بالقليل المشار إليهم في حديث الشبهات: "لا يعلمهن كثير من الناس"، فإنه لا عَمَل للفرقان إلا عند وجود الشبهة؛ إذ عدمُها فرقانٌ في نفسه، فههنا أنشأ العلم عملًا، وأورث العمل علمًا، فأعان هذا العلم الخاص "الفرقان" على عمل أدقَّ وحال أرقَّ، وهكذا أبدًا، فهذا معنى الدائرية أو الكُرية في العلم والعمل: اتصال الأوائل بالأواخر، والله أعلم.

ومثال علم الفرقان المذكور آنفًا ما جاء أن الحارث المحاسبي- رضي الله عنه- كان في يده عِرْق ينبض إذا مس طعامًا حرامًا، فلما حضرت دولة الشيخ العارف أبي العباس المرسي رضي الله عنه، جاءه بعضهم- مختبرًا- بطعام حرام، فنظر الشيخ إلى الرجل، وقال له: ارفع هذا، فلئن كان في يد الحارث عرق، ففي يد أبي العباس ستون عرقًا!

قَصِيدَة مِينِيمس

ترجمة شعرية لقصيدة إنجليزية

ومينيمس هو الخنزير الشاعر الذي دبج قصيدة في مدح نابليون- الخنزير الذي توج حاكمًا على الحيوانات في رائعة أورويل "مزرعة الحيوان"، وقد بدا لي أن أترجمها إلى العربية شعرًا:

Friend of the fatherless

Fountain of happiness

Lord of the swill-bucket! Oh، how; my soul is on

Fire when I gaze at thy

Calm and commanding eye

Like the sun in the sky

Comrade Napoleon

صديقُ اليتيم، ونبعُ السرورْ

مليكُ القُمامة، نفسي فداه!

ونارٌ إذا ما نظرتَ إليه

وطورًا تريك الرضا مقلتاه

رفيقي نَبُلْيونْ

كأنك نجمٌ علا في سماه!

Thou art the giver of

All that thy creatures love

Full belly twice a day، clean straw to roll upon

Every beast great or small

Sleeps at peace in his stall

Thou watchest over all

Comrade Napoleon

فـأنـت الـواهـب المعطي لمـا يـرجـوه مـن أبـدعـتْ

مـلأت بـطـونهـم خـيرًا وفي السكنى لهم أفسحتْ

ونـام كـبـيرهـم أمـنًـا وعـينَ صـغـيرهـم أقـررتْ

وعينُك تكلأ الكُلّا

رفيقي يا نبليونُ!

Had I sucking-pig

Ere he had growen as big

،Even as a pint bottle or a rolling-pin

He should have learned to be

Faithful and true to thee

Yes، his first squeak should be

’Comrade Napoleon,

وخنزيري الصغيرُ له عليًّا

أعلمُه يكون لكم وفيًّا

ويصرخ عند مفتتح الطريقِ

تَخِذتُك يا نبليونُ رفيقي!

تَدَ بُّــــر

عجبت لخاتمة آية "النحل": ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾؛ لأن المتبادر عند ذكر النِّعمِ الأمرُ بشكرها، فما قول ربنا سبحانه ها هنا "إن الله لغفور رحيم؟!

خطر لي أنَّا لو أُمرنا بالشكر نصًّا في هذا الموطن لانقطعت دونه رقابُ الخلائق؛ لأن من عجز عن إحصاء النعم، كان عن القيام بشكرها أشدَّ عجزًا!

وثمة لطيفة أخرى، وهي أن التوفيقَ إلى شكرِ نعمةٍ نعمةٌ جديدةٌ تستوجب إحداث شكر آخر، وهكذا أبدًا؛ فدل على دوام العجز لاتصال العطاء، فغفر أي ستر عجزنا، ورحم ضعفنا، سبحانه لا إله إلا هو الغفور الرحيم!

فليس من عجب إذًا أن يقول الشيخ الأكبر قدس سره:"المحقق الكبير يأكل الحنظل، فهو كثير التنغيص، لا يلتذ بنعمة أبدًا ما دام في هذه الدار، لشغله بما كلفه الله من الشكر عليها" (الفتوحات١/ ٢٧٥).

سُوَيْعَةٌ مَعَ بَيْتَيْ نزار

أعني قوله:

فإذا وقفت أمام حسنك صامتًا … فالصمت في حرم الجمال جمال

كلماتنا في الحب تقتل حبنا … إن الحروف تموت حين تقال

في البيتين نَفَس صوفي ظاهر، فإن السادة قالوا: المشاهدة تورث البَهْت، وقولهم رضي الله عنهم أدق وأبهى؛ لكونه بأثر ذوق علوي روحاني، بخلاف شاعرنا، فإن ذوقه طبيعي عنصري. ووجه ذلك أن البهت أعم من الصمت، فإن الصامت ربما أمسك عن الكلام مع حضور القلب، بخلاف المبهوت، فإنه مغلوب تحت سلطان القهر، فلا كلام ولا حضور ولا أنا ولا أنت. ودليل حضوره ذكرُه العلة في البيت التالي:

كلماتنا في الحّب تقتل حبنا … إن الحروف تموت حين تقالُ

إذ لا يشتغل بالتعليل مستَلَبٌ سكران، ولا مولَّهٌ حيران، ولا وارد ظمآن!

مِنْ بَلاغَةِ العَطْفِ في القُرآن

قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

في الآية فصل بين معطوفات؛ وذلك أن اسم "المسيح" عليه السلام معطوف على "أحبارهم" و"رهبانهم"، فكان النسق في غير القرآن يكون: (ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ)، غير أن القرآن فصل اسم "المسيح" عليه السلام عن الأحبار والرهبان بقوله "أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ " تنزيهًا له؛ وتجلية لحقيقة الحال؛ وذلك أن الجناية في اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا راجعةٌ إليهم؛ لأنهم هم من حَرَّم الحلال وأحلَّ الحرام، فأنزلوا أنفسهم منزلة الرب جل اسمه، خلافًا لما جرى من عبادة المسيح عليه السلام؛ فإن جناية ذلك راجعةٌ إلى من جعله لله تعالى ولدًا، ثم عبده، فتعين الفصلُ بين من كَذَب ومن كُذِب عليه، والمباعدةُ بين من افْتَرى ومن افْتُري عليه.

مُثَاقَفَةٌ
التَّارِيخُ فِي كُتُبِ الأَدَبِ

(١)

كتب إلي بعض الأدباء[1] لمناسبة حديث بيننا:

"القضية التي تشغلني بعيدًا عن المسائل الواضحة هي قضية استصحاب تاريخ تطبيق الأحكام وموازاتها وربطها بالجدل الفقهي الدائر في الكتب، ومدى استقامة هذا الفعل، وخاصة في الفروع المختلف فيها، فمثلًا حين تنظر إلى مسألة الغناء والمعازف تجد شواهد كثيرة على شيوع الأمر في العصور كافة إلى يومنا هذا، وكأنها أمر فطري، حتى إنك تجد بعض الملتزمين يحتالون للأمر بما يسمى الأناشيد الخالية من الموسيقا، ولا تمنع أحدهم فطرته من إحداث بعض الأصوات والآهات والنغمات بفمه يستعيض بها عن الموسيقا،

(1) هو صديقي الأديب الأريب الأستاذ أيمن عيسى، المدرس المساعد بقسم البلاغة والنقد الأدبي بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

فمثل هذا يدعو إلى إعادة النظر في الأمور وفي دلالة أدلة التحريم وسياقاتها، وكمها، ومدى العمل بها، وهل هي تفيده على سبيل القطع أم على سبيل الورع..."

فكتبت إليه هذا الجواب: فيما ذكرت أمران:

أولهما: عبارة "تطبيق الأحكام" موهمة بنفسها وإن كانت بينة بسياقها؛ وذلك أن المتبادر منها تطبيق الدولة لأحكام الشرع، بينما أردت أنت فيما فهمتُ تطبيق الناس لها، وهذا لا سبيل إلى معرفته إلا معرفةً هي أشبه شيء بجهل، توهم بيقين هو أشبه شيء بشك!

بيانه أن علم ذلك إنما يطلب إما في كتب التاريخ وهو الأصل، وإما في كتب الآداب تفريعًا على أن الأدب "مرآة الشعوب"!

فأما كتب التاريخ، فليست تغني عنك في هذا الأمر شيئًا؛ لأن جلَّ عنايتها بأخبار الخلفاء والحكام، وحكاية الأحداث الجسام، وما ورد فيها مما يرجع إلى العامة- إن صدق- لا يستقيم لك منه شيء يعول عليه فيما ترجوه من "تاريخ تطبيق الأحكام وموازاتها وربطها بالجدل الفقهي الدائر في الكتب".

وأما كتب الآداب، فلا تكاد تريك ناسكًا ولا زاهدًا ولا عابدًا ولا ذا مروءة إلا وله شغف بالغناء والسماع، وأنه كان يطرب لذلك ويهتز له. وعدِّ عن

حديثها عن الخلفاء، فما تكاد تذكر أحدًا منهم إلا وهو مدله بالخمر والقيان، حتى إن صاحب الأغاني يروي أن الوليد بن يزيد- فيما أذكر- كان في قصره "بحيرة من خمر"! وما حكوه عن هارون الرشيدلم يزل يضرب أطنابه في الخيال حتى لحق بالأساطير، مع أن الرجل كان يغزو عامًا ويحج عامًا.

ولعل ما ذكرتَه في "مسألة الغناء والمعازف" وما تجده من "شواهد كثيرة على شيوع الأمر في العصور كافة إلى يومنا هذا، "وكأنها أمر فطري، حتى إنك تجد بعض الملتزمين يحتالون للأمر بما يسمى الأناشيد الخالية من الموسيقا، ولا تمنع أحدهم فطرته من إحداث بعض الأصوات والآهات والنغمات بفمه يستعيض بها عن الموسيقا"، هذه الشواهد كلها في كتب الآداب، وليست تغني شيئًا؛ لأن الرواة كانوا إذا خرجوا عن الحديث والسنن توسعوا، فروَوْا عن "زعيط ومعيط"! وحسبك نظرة عجلى إلى تاريخ المدينة المنورة- حفظها الله تعالى- في القرن الأول الهجري تجمعه مما رواه الأصفهاني في أغانيه لترى فيها لهوًا وقصفًا وغناءً وخمرًا ورقصًا وقيانًا وأدبًا وحبًّا وظرفًا وشيئًا من "فقه قليل"، وكل هذا ضرب من "الدجْل" في رواية تاريخ الأمم والشعوب لا يعول عليه.

والأمر الآخر أن "إعادة النظر" التي ترجوها قد أغنى عنها "النظر الأول"؛ لأن المسألة - كما ذكرتَ في درج حديثك- خلافية، فالنزاع قائم فيها والجدل محتدم من قديم، ولو أنصف الناس لانتهوا إلى العمل بقاعدة "لا ينكر المختلف فيه، وإنما ينكر المتفق عليه"، إذًا لانسد باب من الشر عظيم! وليس يغني شيئًا فعلُ الناس في باب التشريع، فلو حكى أهل الأدب عن أهل الأرض أنهم كانوا يفعلون كذا وكذا مما نهى عنه الشرع لم يكن في ذلك حجة يعتمدها الفقه؛ إذ الحجة لله تعالى على خلقه، لا لهم عليه! والله أعلم.

(٢)

قال صاحبي: أنكرت أن يُصَدَّقَ بما تنطق به كتب التواريخ والأدب لابْتِنَاء الرواية فيها على التوسع والتساهل، ولو أننا التزمناه رددنا عامة ما فيها! أفليس ينبغي أن تكون الاستفاضة مفيدة للعلم من دون فتش عن الأسانيد؛ إذ سكوتهم عنها مع فشوها مؤذن بصدقها؟

فأجبته: الاستفاضة المزعومة موهومة! ففي التاريخ- مثلًا- يرجع كل من تلا الطبري إليه، فلو كاثر مكاثر فقال: إن لآدم عليه السلام بيتين قالهما إثر مقتل ابنه، أولهما:

تغيرت البلاد ومن عليها   فوجه الأرض مُغبرٌّ قبيح

ثم احتج برواية الطبري والمسعودي وابن الأثير وابن كثير وفلان وفلان لهما، أفيكون ذلك مؤذنًا بصدقهما وصحة نسبتهما إلى أبي البشر عليه السلام؟! وقد علمتَ أن الاستفاضة المعتبرة المفيدة للعلم إنما هي ما وقع في القرون الثلاثة الأولى، وما وراء ذلك فليس بشيء! ألا ترى إلى حديث عمر- رضي الله عنه- في النية كيف جعلوه آحاديًا مع استفاضته في الرواية حتى علمه كل قاص ودان، غير أن ذلك وقع بعد أن غبر زمان الرواية المعتبر! وما أرى المحدِّثين نحَوْا هذا المنحى إلا للمعنى الذي ذكرته لك آنفًا، وهو أن "كثرة الرواة طارئة على الأصل الذي يعوّل عليه في مراتب التصحيح والتوهين".

فالتاريخ إشاعات كما يقول كارليل، أو هو أساطير مصدَّقة كما يقول فولتير، أو هو "رواية يخترعها كل كاتب من توليد خياله، وينتحل لها الأسماء والأعلام من سير الناس وحوادث الأيام" كما يقول العقاد. وقال أيضًا فيما سميته أنت "شهرة": "وكلما اتفق الناس على رواية مسطورة كان ذلك أدعى إلى الشك فيها والتردد في قبولها؛ لأنه دليل على الأخذ بالسماع والتسليم بغير مناقشة. فأما إذا اختلفوا واضطربت أقوالهم بين الثناء والمذمة والترجيح والتضعيف، فأنت

إذًا حيال التاريخ في بابل من الفروض والآراء، ومضلة من الحقائق والشكوك" ساعات بين الكتب، مقال بعنوان "التاريخ".

أما كتب الأدب، فحسبنا منها الأدب! وهي إن لم تكن في الرواية شرًّا من كتب التاريخ، فليست خيرًا منها!

فكتب إليَّ: إنما عنيتُ وقائع هذه الأمة التي شهِدَها المؤرِّخون أو كانوا قَريبي عهدٍ بها، وليس الطبريُّ (ت: 310) وحدَه عمدة أخبار القرون الأولى، بل إنّه مسبوق، وإلا فأينَ الواقِدِيّ (ت: 207)، ومحمدُ بنُ سَعدٍ (ت: 230)، وخليفةُ بنُ خَيّاط (ت: 240)، وابنُ عَبْدِ الحَكَم (ت: 257)، وابنُ قُتَيبةَ الدِّينَوَرِيّ (ت: 276)، والبَلاذُرِيّ (ت: 279)، وأبو حَنيفةَ الدِّينَوَريّ (ت: 282)، واليَعقوبيّ (ت: 292)؟ وقد أقررتم بإمكان وقوع الاستفاضة بعد؛ فليس بلازمٍ توافرُها ابتداءً؛ لقلة التدوين نِسبيًّا وقتئذ، ولو تشددْنا ما بقيَ لنا من التاريخ شيء، ولا رَجَعْنا بشَهادةٍ ولا فَيْء!

فقلت:وكذلك لو تساهلنا لم يبق "منا" شيء، واقرأ "الفتنة الكبرى" لطه حسين تقف على صدق مقالتي.

فقال:كِلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمورِ ذَميمُ! لا التسليم المطلَق، ولا التعنُّت، وأحسبُ أنّ قيدَ "الاستفاضة" كافٍ في ضبْط المنهج.

فأجبته:"الاستفاضة" المذكورة محض وهم، لا تثبت علمًا ولا تنفي جهلًا؛ لأن مبنى القوة في إثبات "علم" بخبر "مستفيض" إنما هي في كثرة من روى الخبر ممن عاينه كثرةً تقطع معها العقول باستحالة التواطؤ على الكذب، و"الاستفاضة" التي تعول أنت عليها إنما هي في تناقل أجيال المؤرخين الخبر، تلقفه أذن اللاحق من فيِّ السابق، وليس هذا بشيء أصلحك الله!

فقال: اللهمّ آمين، وسائرَ المسلمين!على أنني قرنتُ قيدَ الاستفاضة بـ "سكوتهم عنها مع فُشُوِّها"؛ فهم من العدالة بحيث لا يتناقَلون المُنكَرَ ولا يُنكِرون! وحديثُنا عن "كتب" و"تدوين"، وتعلمون أنه كانَ أوّلًا دونَ ما تيسّرَ بعدُ، وأمّا التواتر ومعاينة الكثرة فيُكتَفى في معرفتِهما بنقل الواحد الثقة، وكم من تواتر وإجماع يؤخَذُ من حكاية أفراد! أم ليسَ كذلك؟

فقلت:"سكوتهم عنها مع فُشُوِّها"!!! فأنت لم يكفك الأخذ عمن نطق حتى أنطقتَ من سكت!! ثم العجب من إصرارك مع ورود النص بخلاف ما ذهبتَ إليه:"ثم يفشو الكذب"! وهل بدأ التدوين إلا بعد "فشو الكذب"، ولولا ذلك لما أسند المحدثون!

وههنا بدا لصاحبنا الأول أن يدلي بدلوه، فكتب إليَّ يقول:

أعجب من رأيك في التاريخ والأدب! نعم لست أنكر ما ذكرتَه فيهما من اختلاط ومبالغات، لكن هذا لا يدعو إلى رفضهما بإطلاق، وإلا أتينا على تراثنا كله. وأحسب أن تراثنا وشرعنا ورد إلينا بطريق شبيهة بهذه الطريق، فهو نوع من التاريخ فيما أظن.

وكنت آمل أن يكون هناك تاريخ علمي لا يقتصر في استشفاف خلفيات (التطبيقات) على كتب الأدب وكتب التاريخ العام؛ بل يلجأ إلى الفنون والحفريات والعادات المتوارثة، بل إلى قراءة ما يحيط بالنصوص العلمية ذاتها وبنية تأليفها (الفقه والحديث، والأصول بعضها يمكن أن ترى فيه مرآة العصر وأن نقرأ الحالة المزاجية التي ألفت فيها). وهذا التاريخ لا يعقل أن يكون كله أساطير، وهو لم يأت من فراغ، فلكل ما ورد فيه أصل في الغالب وإن اختلفت التفصيلات وتفاوتت.

فأجبته قائلًا:كلا!! أنا ما دعوت إلى هجر التاريخ والأدب، وإنما ذكرت أمرين:

أحدهما: ألا تُستقى حقائق التاريخ من روايات الأدباء، فإن وقع شيء من ذلك، فلا ينبغي إطلاق القول به دون حيطة، ولا التسليم به

دون تثبت، ولا المنافحة عنه كأنه الحق المحض الذي لا معدى عنه، فما يستقيم في العقل أن يُستخرج العلم من حديث مبناه على المباسطة والمبالغة، ومقصوده في أكثر الأحوال المسامرة!

والأمر الآخر: أن سؤالك كان ينشد دقائق أهملها التاريخ في الغالب؛ لأن أصحابه وَلَّوْا وجوههم- كما أسلفت لك- شطر الساسة ورجال الحكم، وما جل من أحداث البلاد والعباد، وما تطلبه أنت نوع من "التاريخ الاجتماعي" يعز وجوده في كتب أسلافنا، فمقصودي في كل ما سبق متعلق بمرادك، لا بالروايات التاريخية على إطلاقها، ولا برد التاريخ مطلقًا، وهذا في رأيي مقصود من نقلت عنهم؛ لأنه لا يستقيم في العقل خلافه، وقد بينت ذلك بقولي أول كلامي: "فأما كتب التاريخ، فلا تغني عنك في (هذا الأمر) شيئًا"، لكنك وصاحبي الأول التفتما إلى الحكم، وأغفلتما القيد، فألزمتماني ما لا يلزمني!

وأما ورود شرعنا إلينا بطريق الرواية فحق لا مرية فيه، لكن أين تثبُّتُ المؤرخين والأدباء من تثبُّتِ المحدثين والقراء؟! وإغفال هذا الفرق في المقارنة يَذهب بمعنى العلم جملة، ويُلحق الأكاذيب بالحقائق!!

على أن الطريف حقًّا أن الكُتَّاب الذين نقلتُ كلمتهم في التاريخ أحدهم مؤرخ وهو كارليل، والآخران أديبان!

هل الفَنُّ ثَمَرَةُ انْحِرَافٍ في الطَّبِيعَةِ؟

كنت قد نشرت تأويلًا لكلمة حكاها صاحبٌ لي أديبٌ عن بعض أساتذته، يُلمح فيها إلى معقد الفن والإبداع، حيث كتب هذا الأستاذ بيت المتنبي:

فَمَن يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِد مُرًّا به المَاءَ الزُّلالا

ثم التفت إلى طلابه قائلًا: "هذا البيت الفذّ هو الذي يحكم الفنّ، وفيه جِمَاعُ أمره".

ثم إني وقفت على ما يدعم رأيي في معنى هذه العبارة في كلمة عابرة للعلامة ول ديورانت في كتابه "مباهج الفلسفة"، حيث قال: "ويرجع نصف الشعر في العالم إلى اختلال الخلايا"، وهي في معنى ما نبهت عليه في تأويلي من أن الإبداع في العموم ثمرة اختلال يطرأ على مزاج موهوب، وإليكم ما كتبت:

استحالة عذوبةِ الماء الزلال مرارةً في فم الذائق تنبيه على خروج طبيعته عن حال الاعتدال، فهو لا يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس الفن إلا هذا، ليس إلا ثمرة من ثمار انحراف الطبيعة الإنسانية عن حد التوسط؛ ولذلك يوصف الفنانون بالشذوذ في العادات والخلائق، فبعض الروائيين لم تكن تحلو له الكتابة إلا وفي درج مكتبه تفاحة عفنة، وبعض قائدي الفرق الموسيقية لم يكن يتقن عمله إلا إذا كان في جيب معطفه جورب محبوبته، ويذكر مؤرخو الموسيقا أن بيتهوفن كان إذا أراد التأليف خرج إلى الغابة تحت وطأة الأمطار والرياح والبرق والرعد حتى أثر ذلك في صحته، فاعتل، وأصابه الصمم، ويذكر مؤرخو الآداب كذلك أن ابن الرومي كان ربما حبسته كلمة الشر يسمعها، فلا يبرح بيته سحابة نهاره، حتى إن بعض العابثين كان يقصد إلى بيته في الصباح، يطرق بابه، فإذا أجابه، أسمعه كلمة شؤم تنغص عليه سائر يومه. وقد لصق الشؤم بهذا البائس حتى قيل : إن أحدًا لم يكتب عنه إلا أصابه من شؤمه!

وكثيرًا ما يقال: إن الفن ثمرة الألم، وأن الغزِلين من الشعراء- مثلًا- لم يكونوا ليكتبوا ما كتبوه لو وُفِّقوا في حبهم، فكأن هذا الإخفاق المر هو الذي أنتج في نفوسهم ذلك الشعر العذب! فإذا صح

هذا، فليس إلا ما ذكرناه آنفًا من ضرورة انحراف الطبيعة عن مألوفها ليكون الفنُ في أسمى مراقيه.

وهذه الضرورة هي التي حالت دون ازدهار الفنون في أول عهود الناس بالديانات، كالذي كان في صدر الإسلام؛ إذ أعرض الناس عن الشعر إلا قليلًا لغلبة السلامة على الفطر والطبائع، ولزومها حد الاعتدال.

مستَنَدُ الكَوْنِ وَالفَسَادِ

كنت قد قيدت كلمة في مستند وجود الأضداد في الدنيا، وهذه صورتُها:

لما كانت أحوالُ النشأة الإنسانية ثمرةَ التوجهات الأسمائية، وكان مبنى الأسماء الإلهية على التضاد، لزم أن يقع الأثرُ على صورة المؤثِّر، فلولا هذا التضادلم يكن لعالمنا وصفُ الكون والفساد.

ضدان في "لغز" الوجود تجمعا   والسرُّ فيه تقابلُ الأسماء

فتولَّدَ المحذورُ مما يُشتهى   وتخلَّصَ المحبوبُ مِ الأسواءِ!

فسألني بعض الأصحاب مزيد بيان، فقلت:

لما كانت "الكائناتُ مرايا الصفات"، وقد وصف اللهُ تعالى نفسَه بالمتقابلات حتى قال الشيخ أبو سعيد الخراز رضي الله عنه: "عرفتُ الله بجمعه بين الضدين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، أقول: لما كان الأمر على ذلك فيما يغذو الكون إيجادًا وإمدادًا، ظهرت الأضداد في الأكوان.

قال الشيخ محيي الدين ابن العربي في الفتوحات (١/ ٨١):"الألوهية تقتضي أن يكون في العالم بلاءٌ وعافية، فليس إزالة المنتقم من الوجود بأولى من إزالة الغافر وذي العفو والمنعم، ولو بقي من الأسماء ما لا حكم له لكان معطَّلًا، والتعطيل في الألوهية محال، فعَدَمُ أثر الأسماء محال".

ولقد قيل في تأويل قول الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾: إنها لما رأت توجه الأسماء الإلهية المتضادة من حيث المعاني والعطايا على آدم عليه السلام، وهو أصل النشء الإنساني، علمتْ ضرورةً أنه لا بد من وقوع القتال والقتل؛ لأن حكم الأضداد المنافَرَةُ، ولقد أجاب الخضر- عليه السلام- كليم الله موسى حين سلم عليه، بقوله:"أنَّى بأرضك السلام!"، فكان كالتنبيه على ما ذكرنا، وما أشك في أن الجهاد شُرِع إجراءً لما لابد منه في موطنه، وهكذا أبدًا، لا بد من وقوع الآثار، غير أنها إن وافقت المشروع حسنت، وإلا قبحت، والله تعالى أعلم.

ثم إني وقفت على هذا النص للجاحظ في الحيوان (١/ ٢٠٤):

"اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاجُ الخير بالشر، والضار بالنافع، والمكروه بالسار، والضَّعة بالرفعة، والكثرة بالقلة، ولو كان الشر صِرفًا هلك الخلق، أو كان الخير محضًا

سقطت المحنة، وتقطعت أسباب الفكرة. ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز...، ولم يكن على ظهرها محقٌّ يجد عز الحق، ومبطل يجد ذلة الباطل، وموقن يجد برد اليقين، وشاك يجد نقص الحيرة وكرب الوجوم، ولم تكن للنفوس آمال، ولم تتشعبها الأطماع. ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس جهل الأمن، وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء؛ إلى حال السبُع والبهيمة، وإلى حال الغباوة والبلادة، وإلى حال الجوم في السُّخرة؛ فإنها أنقص من حال البهائم في الرَّتعة".

فهو- كما ترى- يذهب المذهب، ولكنه لا يرده إلى أصوله، ولا يبلغ به منتهاه، وهو الذي أتيناك به في كلام صاحب الفتوحات قدس سره.

من أدب الإنشاء
(مُرَاسَلَتان)

المراسلة الأولى:

كتب الأديب الفاضل الدكتور محمد مصطفى الكنز كلمة خلع عليَّ فيها من جليل الوصف ما أخجلني، وعقَدَ دون البيان لساني. قال:

"وهنا رجلٌ، مَهيبُ اللفظ، جليلُ المعنى، فُتنتُ به ولم أره، فكيف بي إذا رأيتُه؟! هو الدكتور أسامة شفيع، مَنْ لفحتْهُ مقالتُه، ولم يَعْجَبْ، أو شذرتْهُ عبارتُه، ولم يُشْدَه، فهو فاسد المزاج، وفي ذائقته ثُلمة، أنّى له أن يتطهر منها؟

فسِرْ بنا الهوينى أيها الحادي..

سِرْ بنا، وترفّق..

فلمِثْلِ مقالتكَ قيل: والفتنةُ أشدُّ من القتل" انتهى بحروفه.

فبقيت ليلتي لا أدري ما أصنع، حتى انتهى بي الحال إلى أن أكتب إليه قائلًا:

"الدكتور محمد مصطفى الكنز

حفظك الله ورعاك!

منذ أمسِ وأنا حائرٌ، بل حيران! كلما دار في نفسي معنى رأيته دون معناك، أو قولٌ لم يكن كفاء قولك، فما يأتيني من ذلك لا أرضاه، وما أرضاه لا يأتيني، وإذا أنا مبدَّدٌ منددٌ، موزعُ الهوى بين صمتٍ توجبُه الصيانة، وجوابٍ تمليه الديانة. وزاد الأمرَ شدةً أنْ قد رأيت استحسان طائفة من الأساتذة مقالتَك، فكأنها نزلت منهم منزل الرضا، وصادفت من نفوسهم موضع القبول!

ثم إني لم أزل أعالج هذه الشدة، فلا تفصِم عني إلا فَواقًا، وإني في ذلك أتعلل لصمتي، قائلًا: "وليس لمقطوعي الرقاب كلام!"، حتى قضى الله تعالى أن أرقم في جوابك حيرتي، فإذا ظهورها على الطِّرس عينُ زوالها من النفس، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وجزاكم الله خيرًا".

المراسلة الأخرى:

كنت قد احتجبت زمانًا عن الكوكب الأزرق (فيس بوك)، فأرسل إليَّ بعضُ الأصدقاء رسالة مزج فيها السؤال بالعتْب، فأجبته قائلًا:

"هوِّن عليك...، فما أردت- علم الله- مساءتك، غير أني تنوبني

أحوالٌ تصرفني عما كنت مقبلًا عليه، وأخرى تُقبل بي على ما كنت معرضًا عنه، وكان أن غشيتني غاشيةُ الإعراض عن "فيس" جملةً- إلا تحلةَ القسم- فأمسكت، لا أكتب ولا أَستكتب، وكنت إذا رأيت سؤال الأحبة ولهفتَهم، تَذكى نار الود في نفسي، ثم إذا هي بصوارف العمل- وما أكثرها!- مُخمدة! ولم يزل ضيق الوقت وكثرة المطالب- وهما من شر ما اجتمع على ابن آدم- يتنازعانني، ويلحان عليّ حتى توثَّق ذلك الصدوف في نفسي، ريثما يأذن الله تعالى بحالِ فُرجة، يُردُّ بها عازبُ الهمة، ويُدفعُ بها لازمُ الهم، والسلام".

مِنْ بَلَاغَةِ الالْتِفَاتِ فِي القُرْآنِ

قال الزمخشري في قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[يونس: 23-22]

"فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلتُ: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم؛ ليُعَجِّبَهُمْ منها، ويستدعيَ منهم الإنكار والتقبيح".

قلت: لا يلوح لي أن في الآية الكريمة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فحسب، وإنما هي المراوحة بينهما؛ وذلك أنه تعالى بدأ الكلام بالخطاب، فقال: "يُسَيِّرُكُمْ"، "كُنْتُمْ"، ثم صرفه إلى الغيبة، فقال: "بِهِمْ"، "وَفَرِحُوا"، "وَجَاءَهُمُ"، "وَظَنُّوا"، "بِهِمْ"، "دَعَوُا"، ثم رده إلى الخطاب في قوله جل وعلا، حكايةً عنهم: "أَنْجَيْتَنَا"، ثم رده إلى الغيبة في الآية التي تليها–

ولها بها تعلق من جهة المعنى- في قوله تعالى: "أَنْجَاهُمْ"، "هُمْ"، "يَبْغُونَ".

وفي هذه المراوحة تنبيه على حال الإنسان في تقلبه بين الحضور والغفلة، وليس يبعد أن تكون الآية- مع جريانها على ظاهرها- ضربَ مثل. ففي حال ابتداء إجراء النعمة على العباد تكون القلوب حاضرة، معلقة بالله تعالى لتلقي الإمداد، مشفقة من المنع، مستحضرة كمال الافتقار، فيكون الخطاب حينئذ أبلغ.

فإذا جرت النعمة، وشغل الإنسان بها حتى استغرقته، كانت الغفلة، وصحبها الخروج من حضرة الخطاب، فكان صرف الكلام إلى الغيبة أدل على الحال؛ فما يناسب غيبةَ الضمير إلا ضميرُ الغيبة!

حتى إذا كان الضيق، وصاحِبَاه العجزُ والضعفُ، كانت الذكرى؛ فما ابتلاك إلا ليردك إليه.

فإذا رجعتَ، أذن لك، فدخلت حضرة الخطاب، بالمناجاة على بساط الرجاء: "أَنْجَيْتَنَا"، حتى إذا انقضت المحنة، ورجعت المنة، استمرأ الإنسان ذلك المرعى الوخيم، "إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا"؛ فرُدَّ إلى ظلمة الغفلة بعد أنوار الحضور، وإلى غيهب الغيبة بعد الظهور.

ثم تأمل بعدُ..كم مقدارُ غفلته إلى مقدارِ حضوره، وقل صدق الله: "وَكَانَ الإنسَانُ كَفُورًا".

المَقامَةُ الفِيسِيَّة المسَمَّاةُ

مَسْأَلَةُ الْأَحْبَابِ المنْذِرِينَ بِمَا في الفِيسِ مِنَ الخَرَابِ!

تَحَدَّثَ النَّاسُ مُنْذُ أَشْهُرٍ أَنَّ صَانِعَ الفِيسِ وَمُخْتَرَعَهُ قَدِ اسْتَحْدَثَ مِنْ قَبَائِحِ اللَّوَائِحِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنَ رِقَابِ مَنْ "تَفيَّسْ"، وَأَنَّهُ تَعَجَّلَ في ذَلَكَ وَمَا تَرَيَّثْ، فَإِذَا هُوَ قَابِعٌ عَلَى صُدُورِهِمْ، مُتَصَرِّفٌ في أُمُورِهِمْ.

ثُمَّ كَانَ أَنْ هَبَّتْ لِدَرْءِ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنَ الفَسَابِكَةِ الْأَحْرَارْ، يُنَبِّهُونَ الْأَحْدَاثَ وَالْأَغْرَارْ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْأَخْطَارْ، وَجَعَلُوا يُعْلِنُونَ اسْتِنْكَارَهُمْ، وَإِبَايَتَهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ، ويُنْذِرُونَ "فِيسًا" بِالوَيْلِ وَالثُّبُورْ، وَعَظَائِمِ الْأُمُورْ، فَيَكْتُبُونَ تَارَةً بِعَرَبِيَّةٍ مَلِيحَهْ، وَتَارَةً بِإِفْرِنْجِيَّةٍ فَصِيحَهْ، وَيُوجِزُونَ طَوْرًا، وَيُطْنِبُونَ أَطْوَارَا، وَلَا يَرْجُونَ لِلْفِيسِ وَقَارَا، وَهُمْ فِي ذَلِكَ بَيْنَ إِبْرَاقٍ وَإِرْعَادْ، وَتَخْوِيفٍ وَإِيعَادْ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ شَحَذَ لِلْعُزْلَةِ غِرَارَ عَزْمَتِهْ، وَفاجَأَ الرُّفْقَةَ بِدُنُوِّ فُرْقَتِهْ، فَكَمْ سَالَتْ لِذَلِكَ دُمُوعُ الْآمَاقْ، وَتِلْكَ شِنْشِنَةٌ مَنْ فُورِقَ عَلَى اشْتِيَاقْ،

وَإِنِّي في ذَلكَ كُلِّهِ أَخُو جَهَالَهْ، لَا أَمِيزُ صَحِيحَ الْأَخْبَارِ مِمَّا بِهِ إِحَالَهْ، حَتَّى جَرَى المقَالُ بِمَا يَكْشِفُ عَنِ الحَالِ:

هَلْ عَارِفٌ يَدُلُّنِي ... إِنْ كَانَ "فِيسٌ" غَشَّنِي؟

إِنْ كَانَ يَنْوِي غَدْرَةً ... فَالمرْءُ عَنْ فِيسٍ غَنِي!

عِشْنَا زَمَانًا دُونَهُ ... لَوْ أَنَّنِي.. لَوْ أَنَّنِي!

فَلَيْتَنِي.. وَلَيْتَنِي.. ... لَكِنَّنِي.. لَكِنَّنِي..!

هَيْهَاتَ تُحْيِي حَسْرَةٌ ... مَا مَاتَ، أَوْ يَا لَيْتَنِي!

جَمَالُ الكَلَام

سئل فيثاغورس عن الجمال، فقال: التناسب!

ولا غرابة في مصيره إلى هذ المعنى في ماهية الجمال؛ لأنه رياضي matimatétien، والبحثُ في النسب والمقادير فَنُّه، ولكن الغريب أن هذا المعنى هو الذي يُعوَّل عليه في قياس الجمال فيما يُظن أنه مقطوع الأسباب بعالم الأعداد والحساب!

يقول الخطيب القزويني في حد البلاغة:"البلاغة صفة في الكلام والمتكلِّم فقط، فالبلاغة في الكلام: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، وهو مختلف، فإنَّ مقامات الكلام متفاوتة، ولكل كلمة مع صاحبها مقام، وارتفاع شأن الكلام في الحُسْنِ والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدمها، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب".

فهذا التعريف مع كلمة فيثاغورس أشبه شيء بالحاشية التي تُفصّل الفروع مع المتن الذي يومئ إلى الأصول؛ وذلك أنه لا معنى للمطابقة بين الحال والمقال- وهي لب البلاغة- إلا "التناسب"، ولا يؤول معني الفصاحة بعد البحث والدرس أيضًا إلا إلى "التناسب".

فجمال الكلام في تناسب أجزائه!

وهذ المعنى هو الذي يكشف لك غيبة الجمال عن كلامٍ ربما استوفى - بادي الرأي - أسبابَه، أو طرفًا منها، ودونك في بيان ذلك مثالين:

أحدهما: كاتبان يكثران من الغريب، غير أنك تستحسن صنيع أحدهما، وتستسمج بضاعة الآخر؛ وليس من سبب إلا انعدام التناسب عنده؛ وذلك أن من شرط الإغراب السائغ في الذوق أن يكون تركيب الكلام على هيئته عند القدماء؛ أعني بناء الجملة، وهو أمر يعرفه من يعرف الفرق بين فصحى التراث وفصحى المحدثين، فإن كتبت على نسق المحدثين، ثم دعاك شيطانك إلى الإغراب، بدت الكلمة ناشزًا بين أخواتها، مستغرَبة مستثقلة، والسر انعدام التناسب.

والمثال الآخر: أنه لا نزاع في أن التضمين آية البراعة، وعنوان البلاغة، وأمارة اتساع المعرفة، فإذا كان من القرآن فهو الغاية التي يعيا في طلبها البلغاء وأرباب البيان، غير أن بعض الكاتبين لا تجزئه الآية والآيتان، يوردهما ليزين بهما عاطل كلامه، وإنما يركب مركب الشطط، فإذا كلامه يوشك أن يكون آيات من سور شتى، أعاد نظمها، ثم ألف بينها لينشئ سورة ليست في كتاب الله!

خُطُوَاتُ الشَّيْطَانِ

كنت أشرح هذه الكلمة، فجاء فيما قلت:

إن الشيطان لا يهوِي بالمرء في دركات الغواية إلا على مِحَفَّةِ "التدرج"، فلا يروم غالبًا نقله من أوج واجب إلى هُوّة حرام، ولكن ينزل به إلى مباح، ثم إلى مكروه، ثم إلى ما فيه شبهة، حتى إذا فرغ من قلقلة عزمه، دعاه إلى الحرام النص، فلم ير إلا سامعًا مطيعًا!

وربما آنس منه انبعاث شهوة في قلبه، فإذا به يُخلي يديه إلا من إذكائها، كلما خبت زادها سعيرًا، وإذا المخذولُ عونُه على نفسه، من حيث لم يدرِ أن السم في العسل!

وربما تنقّل به في المحرمات من الخفيف، إلى الشديد، إلى الأشد، وهذا أهون ما يكون عليه من سبل الإغواء، وذلك أنه يرمي بقرينه على الطريق، ثم يدع النفسَ تُتمُّ المسير، ولا أخبثَ منها عداءً؛ لأنها عدو تَبدَّى في ثياب صديق!

وههنا حضرني مثالٌ على هذا النمط الأخير؛ قولُ الشاعر:

نـظـرةٌ، فابتسامةٌ، فسلامٌ فـكـلامٌ، فـمـوعـدٌ، فَلقاءُ!

ألا ترى كيف قال بعدها:

يوم كنا، ولا تسل كيف كنا نتهادى من الهـوى ما نشاءُ

وعلينا من العفاف رقيبٌ تعبت في مـراسـه الأهْـــواءُ!

فإذا قدّرت أن الشاعر يقول ما لا يفعل، أدركت حقيقة المعنى، ولا يخفى أن الكلام على عمومه، ولا تعلق له بصاحب الأبيات رحمه الله تعالى، وإنما الشاعر هنا لسانُ النفس، كلّ نفس، وتَرجُمانُها.

فإبليس دعاك إلى النظرة، ثم اضطلعتْ نفسُك بما بقي، وهذا من معنى ما ورد على ضعفه:

"**إِنَّ النَّظْرَةَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ**..." الحديث.

فما عزا إليه سوى النظرة، ووصم القرآنُ كيدَه بالضعف، وإنما يتقوى بالإلحاح، وكثرة التصرف في الحيل، وطلب المعونة ممن جمعتهم به عداوتُك، وأعتاهُمْ نفسُك التي بين جنبيك، فليس من عجبٍ إذًا أن تتجه إليها هممُ المشايخ في تربية المريدين؛ فإن المريد

إذا رزق موتَ النفس هان عليه أمرُ الشيطان جدًّا، بل يكون هذا ألعوبةً بين يديه، كلما أتاه بنزغ سوءٍ استثمر الوليُّ منه خيرًا، فيرجع إبليس خاسئًا وهو حسير.

ومن هذا الاستثمار المعكوس الانتفاعُ في باب الهداية بطريقة الشيطان في الغواية؛ أعني سنةَ "التدرج"، فلا تجمعِ الطاعاتِ كلَّها على شقي ترجو صلاحه، ولكن تألفْه بما يحبُّ حتى يحبك ويحبَّ ما تدعوه إليه.

قال الأشياخ رضي الله عنهم: إذا أتيتَ على قوم يعبدون البقر، فابدأ دعوتهم إلى الله تعالى بإطعام بقرتهم حزمةً من حشيش؛ فإنك ما تألفت الناس ألفوك، وإذا ألفوك أحبوك، وإذا أحبوك أسلسوا لك مقادتهم، فحدوتَهم حدو الإبل، أو سقتهم سوق الشاء. وقالوا أيضًا: إذا لقيت المريدَ وغشيتُه فترةٌ في العبادة، فسله عن أولاده قبل أن تسأله عن أوراده!

وهذا المعنى يغيب عن كثير ممن اشتغل بالدعوة؛ لأنه يدعو الناس ونفسُه لم تزل هنالك.. بين جنبيه، تُملي، وهو يكتب ما يُملى عليه، فكيف يستقيم الظل والعود أعوج؟! وما رأيت أجمع للفرق

بين الداعي المؤيَّد، والداعية الطفيلي من قول شوقي- رحمه الله- يخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

داويــتَ مُتَّئِدًا، وداوَوْا طفرةً وأخفُّ من بعض الدواءِ الداءُ!

رحم الله أمير الشعراء، فقد انتفعنا به في الوجهين جميعًا!

لَوْنُ المَاءِ لَوْنُ إِنَائِه

ربما كان العطاء واحدًا، ثم يختلف أثره باختلاف القوابل، ومن هنا تعرف كيف اهتدى بالقرآن قوم، وضل آخرون:

فـإن الـنـار للموصول نور وإن الـنـور للمقطوع نـار!

كما يقول بعض العارفين، فالنارية والنورية فيك لو عقلت.

قال الشيخ ابن عطاء الله السكندري قدس الله سره:"متى فقهت عن الله في المنع عاد المنع عين العطاء"، فقد كنت ممنوعًا "غير فقيه"، فكان "عدم فقهك" سر "منعك"، فلما فقُهت كان في فقهك "عين العطاء"، وهذا على نحو ما قيل:

رَقَّ الـزجـاج وراقـت الخمر فَـتَـشـابها فتشاكل الأمـر

فـكـأنـما خمـر ولا قـدحٌ وكـأنـما قـدح ولا خمـر!

ومن هذا الباب تفهم قوله ﷺ:"عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له".

فالشكر والصبر ثمرتا الإيمان من حيث بصر المؤمن بمقتضى المنة في الأول، ومقتضى المحنة في الآخر، وكلاهما مُفضٍ إلى الخيرية؛ لأنها لازم الإيمان في المؤمن: "لون الماء لون إنائه"!؛ ولذلك ترى النبي ﷺ نبَّه على هذا المعنى بالطريقين جميعًا: إيجابًا:"عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير"، وسلبًا: "وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن"، فقطع السبيل على كل اختلاط في الفهم أو سوء في التقدير.

ومن هذا الطراز ما قاله بعض العارفين:

كلت مباني ما أقول عن الذي	**أرمـــي إلى معناه أو إثباته**
قلت المعاني في عظيم بنائها	**كــلٌّ يــرى قــولي عــلى مرآته**

والشاهد قوله رضي الله عنه:"كلٌّ يرى قولي على مرآته"؛ إذ لا جرم أن " لون الماء لون إنائه".

عَنِ المنْفَلُوطِي

كتب إليّ صديق أديب يسألني رأيي في كتابات المنفلوطي، فكان مما قال: إنه يجد من عذوبتها، وسلاستها، وروعة التصوير فيها، مع الغنى في المفردات الدالة المعبرة، مع صوابية نهجها على قواعد الشريعة ما يقدمه رحمه الله على غيره، ومع ذلك فحظه التأخير، فما رأيكم؟

فقلت في جوابه:

قد أجبتَ في طي سؤالك حين قصرت مدحك إياه على براعته في الإنشاء.

لقد كان- رَحِمَهَ الله- أسوة طلاب البيان في أول القرن العشرين، وكانت عَبَرَاتُهُ ونَظَرَاتُهُ حديثَ الدنيا وشُغُلَ الناس، حتى إن طلاب المدارس كانوا يتقفَّوْنَ أثره في موضوعات الإنشاء، لكن لما كان المحصول الفكري فيما يكتب قليلًا، أخره أصحاب الفكر، ولما تجاوز الفن هذا النمط من الكتابة إلى أنماط أخرى لا تحتفِلُ بالمحسنات

احتفالَ أهل حِقبته، أهمله أهل الفن، وطوى الزمنُ صفحتهُ، فلا تجد له قارئًا ولا ذاكرًا إلا في قصِيٍّ من رقعة الزمان!

ثم كان من خبره كذلك أن جاء الرافعي فأخمل ذكره؛ لأنه أوتي المنطقين، وأجرى جواده في المضمارين.

هَاجِسٌ نَقْدِيّ

كنت- ولم أزل- أجد في نفسي إنكارًا شديدًا لأكثر الأخيلة في شعر المحدثين، ولم يكن يُطيف بي- في تعليل ذلك إلا هاجسٌ خفي، أجد أثره، ولا تكاد تضبطه عبارتي، حتى انتهيت إلى هذه الكلمة المباركة للأستاذ محمود محمد شاكر- رحمه الله- في جمهرة المقالات (١/ ١٠٠):

"البلاغة ليست إلا حفظَ النسبةِ بين الحقيقة اللغوية والمجاز البياني، فكل ما لم يكن كذلك من المجاز والاستعارة فهو لغوٌ يتشدق به من ليس له ذوق أدبي رفيع!"

فارتفع الإشكال، ووقفتُ على السبب من وراء ذلك الإعراض الطبعي عن تلك الأشعار؛ وهو أنها سلسلة مشؤومة من الإحالات العقلية! فمجازات كثير من شعراء العصر قد أثقلتها آفتان: تراكبها وتكاثفها، وانعدام الصلة بين أطرافها، فليت كلمة الشيخ تجد فيهم سامعًا مطيعًا!

مُثاقَفَةٌ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾

كتبت تعليقًا على هذه الآية الكريمة، وحكايةً عن الشيخ الأكبر قدس سره: هذا من تلقين الله تعالى عبدَه الحجة، ليقول: غرني كرمك!

فقال صاحبي:

وما مدى صحة قولٍ آخر يحمل الآية على "التهديد واللوم والتعنيف"، وبخاصة إذا كان الإنسان كافرًا، فتكون إجابته "غرني جهلي والشيطان، ثم ما توجيهكم لقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ إذا حملناها على الاستفهام، لا التعجب؟!

فكتبت إليه هذا الجواب:

تلقين الحجة باد في أمرين:

أحدهما: ذكر اسم الرب الدائر في معانيه على ما بينه السُّجاعي- رحمه الله- نظمًا في قوله:

قريب، محيط، مالك، ومدبر — مرب، كثير الخير، والمول للنعم
وخالقنا المعبود جابر كسرنـا — ومصلحنا، والصاحب الثابت القدم
وجامعنا والسيـد، احفظ فهذه — معان أتت للرب، فادع لمن نـظم

والآخر: الوصف باسمه تعالى "الكريم " دون غيره من الأسماء الحسنى. فأين ترى في الآية الدليل على ما ذهب إليه من نقلت عنهم؟ وكذلك فإني قلت لك: هذا من تلقين الله تعالى عبده الحجة، وما كل من لُقن تلقن ولا كل من هُدي اهتدى؛ ولذلك فهذا من نفيس العلم، والموفق من وفقه الله تعالى.

أما حمل قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ على محض الاستفهام أو التعجب، فلا يخلو من مراجعة؛ وذلك أن محض الاستفهام لا تصح نسبته إلى الله تعالى حقيقة؛ لما يقتضيه من طلب العلم بما لم يكن معلومًا، وهو محال في حق العليم سبحانه؛ ولذلك ترى ما جاء من سؤال الله تعالى خلقه مما حكاه القرآن أو ذكرته السنة إنما كان لمعنى آخر يراد تقريره عند المخاطب أو السامع. أما التعجب فمعنى نفسي سببه وقوع ما لم يكن في الحسبان وقوعه، فمبناه كذلك على نقص العلم، وهو محال في حق الله تعالى، فما بقي إلا أن قوله جل وعلا:

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ له من الاستفهام أو التعجب الصورة لا الحقيقة، فإذا حملته على الاستفهام أُوِّل بأن المراد به نفي أسباب الكفر؛ أي قُتِل الإنسانُ فقد كَفَر ولم يكن ثمة ما يدعوه لذلك؛ ولذلك قال في الآية الأخرى:" فلله الحجة البالغة"، فلو كان ثمة سبب داع إلى الكفر لما كانت الحجة بالغة، واللازم باطل فكذلك الملزوم، وإن حملتها على التعجب، فالمراد تعجيب السامع من كثرة مظاهر الكفر مع وفرة موجبات الشكر، والله تعالى أجل وأعلم.

جَوَابُ أَعْرَابيٍّ عَاشِقٍ

قال أعرابي:

شكوتُ، فقالتْ: كلُّ هذا تبرُّمًا بحبِّي، أراح اللهُ قلبكَ من حُبِّي!

فلمّا كتمتُ الحبَّ، قالتْ: لشدَّ ما صبرت وما هذا بفعل شجِي القلب

فأدنو فتُقصيني، فأبعد طالبًا رضاها فـتـعـتدّ التّـبـاعـد مِـن ذنبي

فشكواي تُؤذيها وصبري يسوءها وتجزع من بُعدي، وتنفر من قُربي

فيا قوم هل من حيلةٍ تعرفونها أشيروا بها، واستوجبوا الشُّكر من ربِّي

فأجبته:

وكيف ترومُ اليومَ يا صَبُّ حيلةً وفي حيلةِ المحتال صَرْفٌ عن الحُبِّ؟!

وليس الهوى في العُرف إلا مَضَلَةً وتصبحَ في دربٍ، وتُمسيَ في دربِ

قلوقًا، شجيَّ النفسِ، مضطَّرمَ الحشا قريبًا على بعدٍ، بعيدًا على قربِ!

أَقْبَحُ الكَلَام

كتبت ذات يوم: "تفكرت في مراتب التكلف في الكلام، فما رأيت هُجنة أشنع من المعنى المأنوس في اللفظ الحوشي".

فقال لي صاحبي: تُرى لو خلا صوغك لمعناك الطريف هذا من ذكر الهجنة والشناعة والحوشية.. ألا يكون ذلك آنس للقلوب؟!

فقلت وقد علمت مرمى كلامه: بلى! ولو خلا كذلك من ذكر المراتب والتكلف والكلام والأنس والمعنى واللفظ لكان أكثر إيناسًا لهذه القلوب!!!

فقال: إنما أردت أن تقدم لهذه القلوب بألفاظك مثالًا على معناك!

فقلت: قد فهمت ما أردت، وإنما هي المباسطة بيننا على ما علمت.

أما نقدك لعبارتي، وإلماحك إلى أنني أول من خالف فحواها، فحقيق بالدرس والتأمل. ولنبدأ بلفظ "الحوشي": هذا- كما تعلم- مصطلح سكَّه أهل البلاغة يريدون به ما بلغ الغاية في الإغراب من

الألفاظ حتى استوحشه الناس (أهل العلم لا العامة كما هو بيِّن)، وهو مستعمل بكثرة في مثل السياق الذي أوردته فيه، فلست في هذا- والحمد لله- مبتدعًا، وإنما أنا متبع.

وأما "الهجنة" فالفعل منها (هَجُن) مستعمل في وصف الكلام المعيب المرذول، فما عدوت إذًا بابه!

فإن قلت: قد كان يكفيك لفظ "العيب" مثلًا، فالجواب: ليسا سواءً؛ لأن في "الهجنة" معنى زائدًا، وهو أن الهجين في لسان العرب وليد مختلفين، فناسب أن توصف به العبارة الناشئة عن اجتماع معنى "مأنوس" ولفظ "حوشي".

وأما "الشناعة"، فبلوغ الغاية في مراتب القبح، فناسب أن تكون وصفًا لكل ما نزل إلى هذه الدركة من الأشياء، والأمر مع ذلك محتمل، والله تعالى أجل وأعلم.

نَثِيرُ الدُّرّ

وهي أبيات من الشعر ومقطوعات، بعضها أنشدته ابتداءً، وبعضها بأثر شعر كتبه غيري أو أذاعه في الناس.

فمن الأبيات المفردة قولي:

لكلِّ حُسْنٍ نظيرٌ يُستدلُّ به ... عليه، لَكِنَّ بعضَ الحُسْنِ منفردُ!

وقولي:

رأيتُ جميعَ الخلقِ في بَسْطِ راحةٍ ... وليس سِوى العُشاقِ في راحة القبض!

وقولي:

إنَّ السجالَ يُقوِّي داعيَ النظرِ ... والنارُ مبعثُها من صَكّةِ الحَجَرِ!

وقولي فيما استعملته العرب في مراتب النساء:

إليك ثلاثًا فرقتها المراتبُ ... فمن أَعصرتْ، والناهداتُ، فكاعبُ!

ومنه جواب هذين البيتين:

إذا كان حبُّ الهائمين من الورى ... بليلى وسلمى يسلب اللب والعقلا

فماذا عسى أن يصنع الهائم الذي ... سرى قلبُه شوقًا إلى العالم الأعلى؟!

فقلت:

يلازمُ طرقَ الباب في حالِ ذِلةٍ ويقطع بحر الشوق للمجلس الأجلى

وقولي:

أحب إليّ إذا ما قيل: "حدثَنا" وكذلك "أخبرنا"، فالعلم تلقين

وقولي أجيب الشاعر ياسر أنور في قوله:

لم يعرفوا أمْـرَ الغرام وأمْرَكا وهـواك حين أضرني وأضركا

نصف النساء عشقتهن نكاية في قلبها القاسي لكي يتحركا

فأجبته:

فأبى، وأعرض قائلًا في عزة: داء الهوى يا صاحبي أن تشركا!

وقلت في جواب هذا:

كيف السبيل إلى السلوّ ولم تُعدْ عقلي عليَّ، ولم تدعْ قلبي معي؟!

فأجبته:

طلب السلوِّ من المحب رعونةٌ فعلام ترجوه، ولست بنائلهْ؟!

ومنه ما كتبه بعضهم:

ظننت بهم ظنًّا جميلًا، فخيبوا رجائي، وما كلُّ الظنون تصيب!

فأجبته:

فهلا رجـوتَ الله من قبلُ إنه ... سميع، إلى من قد دعاه قريب!

وكتب آخر:

ما للزمان رمى قومي فزعزعهم ... تطايرَ القعب لما صكه الحجر؟

فأجبته:

تلك الحياةُ، فلا تغرُرْكَ بهجتُها ... من يُعملِ العقلَ تنفعْ عنده العِبَرُ!

ومن المثناة قولي:

دعوى التغير في الحقائق فريةٌ ... إن الحقيقة لم تُـنـط بزمان

فهي التي من قبل آدم لم تزل ... وعلى المـدى لم يُبلها الحدثان

وقولي:

عَرَفُوا الجمَالَ، وميَّزوا أنواعهُ ... حتَّى جَمَال "القُبْحِ" في أقْيادِهِ!

ذاكَ الذي تُبْدِيه صَنْعةُ حَاذِقٍ ... لَقِفٍ، يُريكَ الحُسْنَ في أضْدَادِهِ!

وقولي:

عجبت لمـن يحـب بغير ذل ... وفي الذل التقربُ والتلاقي!

ومن يعرضْ عن المحبوب كبرًا ... يـذق مُـر المحبة في الفراق!

وقولي:

لم يــزل في الــنــاس خير فــضــل ربي لا يُــعــدّ!

فــارتــقــب فــتــحًــا قــريــبًــا ذاك بــحــر لا يُحــدّ!

وقولي أتمم بيتي ابن الرومي، وهما:

أَخَـافُ عَلَى نَفْسِي وَأَرْجُو مَفَازَهَا وَأَسْتَارُ غَيْبِ اللَّهِ دُونَ العوَاقِبِ

أَلَا مَنْ يُرِينِي غَايَتِي قَبْلَ مَذْهَبِي وَمِنْ أَيْنَ وَالغَايَاتُ بَعْدَ المَذَاهِبِ؟!

فقلت:

فَفَوَّضْتُ أَمْرِي للذِي مِنْهُ مَأْمَنِي فَلَستُ أُبالِي أَيْنَ كانت مَضَارِبِي

وَمَنْ يَجْعلِ الرَّحْمَنَ مِنْ دُونِ قَصْدِهِ يَنَلْهُ، وَإِنْ صُفَّتْ جُيُوشُ الْكَتَائِبِ

وقولي في النصيحة:

لا تحــســبــنَّ صــديــقًــا ســوى الــذي مــا خذلك

لا تــأمــنــنَّ لــئــيـماً إن غــبــت يــومًــا أكــلــك

وقولي:

ولـربّ حاشيةٍ يُسرُّ بها الذي سبكَ المتونَ، وفاتَه أسرارُها!

ويروحُ قد فدَّى يراعةَ شارحٍ بَقَرَ الغيوبَ، فأبرقتْ أنوارُها!

ومن المثلثات قولي:

حُييتَ يا أدب العراق فإنني   صَبٌّ يدب الشِّعر في أنـّاته!
بلَغَتْ مسامَعَه جزالةُ منطق   رُوح الجمال تُطل من قسماته
فأعاد نشرته لينتشر البها   ومضى يصيح الناسُ من آهاته!

وقولي أتمم بيتين لابن الوردي، وهما:

إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا   سَعِيدًا سَالِمًا رَاضِي
تَصَبَّرْ وَاحْتَمِلْ وَاقْنَعْ   وَلَا تَأْسَفْ عَلَى مَاضِ

فزدت عليهما هذه الثلاثة من كيسي:

وجالد، لا تطب نفسًا   بإدبار، وإعراض
فليس يَشيد مجد المر(م)   ء إلا عزمُه الماضي
بتوفيق من المولى   كفى بالله من قاضي!

وقال بعضهم:

ننسى الجراح، ولا ننسى تذكّرها   إذا برا الجرحُ لم يبرأْ بنا الأثرُ!

فأجبته:

بلى وربـك، يبرا حين تطمسه يدُ السنين، وفضلُ الشيْبَةِ الْعِبَرُ!

تمضي الحياة بنا مـّوارةً قُدُمًا وبحرها لجج، في طيها فِكَرُ!

فصفوها كدرٌ، والناسُ في شغُلٍ والموت يرقب، والأقدار تنتظر!

ومن المخمسات قولي:

الـــشـــعـــر محـتـمـل مـــا شـئـت في مـعـنـاهُ

فـــيـــه يـــرى كـــلٌّ مـــا لا يـــراه ســـواهُ

مـــا ضـــل مـــن قـــول بـــعـــضٌ يـــراه هـــداهُ

فـــاصـــدح، فـــلا حـــرجٌ كـــلٌّ أســـير هـــواهُ!

فـــالأمـــر في ســعــة فـــأمْـــلِ مـــا تهـــواهُ

مطارحة شعرية بيني وبين الأديب أحمد مجدي قطب:كتبت غيرَ مرةٍ في يوم واحد عن مادة "سكر" وما حوت، فسألني أحمد- مداعبًا- عن سر ذلك، فقلت له:

ذاك سرٌّ، فما سؤالُـك عنه؟ ليس سرًّا إذا رجعتُ جوابا!

فقال:

سِرُّكُــمْ نُـكْـتـةٌ بهـا نَتَهدّى جمعَ منتور دُرِّكـم مُستَطابا!

فقلت:

فـدَعِ "الــسَّر"، إن دونَ حماه لمـريـدٍ مصاعبًا وعِـقـابـا!

فقال:

قد رأينا حِماكُمُو في هَوانا مَلْجأً ليس يُتّقى إرْهَـابـا!

فقلت:

صاحِ، فاحذر وِفاقَ نفسٍ طَموحٍ تـدعُ القلب بالوفاق خرابا!

فقال:

هل طُموحٌ إلى العَلاء ذَميمٌ؟ أو يُرجِّي الفَتى الكَريمَ فيَابَى؟

فقلت:

كم تــراءى لظامئٍ مـاءُ عينٍ ويـــــراهُ إذا أتـــاه سرابـــا!

فقال:

قد رجَوْتُ الثّوابَ في بَثِّ عِلمٍ فابذُلوه، ولا حُرِمتمْ ثَوابا!

فقلت:

دون بعضِ العلوم ألفُ حجابٍ بثُّها إن يكن يَجُــرَّ عقابا!

فقال:

إن ضننِتم فمن يَجودُ سِواكُم؟ سوف أمْضِي، والله يَفتَحُ بَابا!

فقلت:

إنـما الضنُّ إنْ ملكتُ، وإني مثلكم قـاصـدٌ لــربيَ بابا!

بهجة القلوب بزيارة المحبوب (كتبتها احتفاءً بصديقي الدكتور محمد متولي عندما قدم من ألمانيا لزيارتي في فرنسا)

رأت الـــدار حــراكَــا وانــشــغــالًا و ارتــبــاكــا

فــهــنــا تــعــمــل زوجــي تــــــــارةً، ثـــم هــنــاكــا

فهي تبدي وتُعيدْ!

قــالــت الـــدار: لَـعَـمـري إن خــطــبًــا قـــد ألَّـــــا!

قـــد أحـــالـــوني عـــروسًـــا وكَـــــفـــــوْني مـــا أهمَّـــــا!

فقديمي كجديدْ!

هــــذه الــفــرحــةُ تــسري في وجــــــوه قــاطــنــيَّــا

فــرحــةٌ فــاح شــذاهــا وتخــطَّــاهــم إلــيَّــا!

وكأن اليومَ عيدْ!

فــأجــابَ الـــدارَ قلبي بـــجـــوابٍ مُــتــجــلِّي

زَفَّ بُــــشرايَ إلــيـهـا بـــزيـــارةْ مُـــتَـــوَلِّي!

إنني جِدُّ سعيدْ!

مَنْ تَعَلَّمَ الحِسَابَ جَزُلَ رأيُه!

كلمة قالها الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقد يسر الله في فهمها ما يلي:

جزالة الرأي تعني "إحكامه"، ومتعلَّق الإحكام "الصناعة"، فربما رأيت القول الباطل مسبوكًا محبوكًا فبدا لك حقًّا، وربما رأيت مقالة الحق مهلهلة النسج واهنة البناء فبدت لك باطلًا، وما ذاك إلا من جودة "الصناعة" ورداءتها، فالباطل المحكم أسرع إلى النفوس من الحق المهمل، وإلى هذا الإشارة في حديث:"ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض".

وعندي أن ما أراده الإمام الشافعي في هذه العبارة هو عين ما أراده الإمام الغزالي من مقدمة المنطق المطولة التي صدر بها كتابه المستصفى في أصول الفقه، ثم جعل الإلمام بها شرطًا من شروط الاجتهاد؛ ومقصودُ كليهما أن يكون للفقيه"منهج منضبط تُفضي مقدماته إفضاءً حتميًّا إلى نتائجه"، وهذه الخصيصى- كما ترى- خصلة مشتركة بين العلمين: الحساب والمنطق.

ومن اللافت أن حضَّ الإمام على تعلم الحساب جاء عقب ذكره النحو والعربية، وهما "وسيلة" الفقيه، وقبل حديثه عن الفقه، وهو "غايته"، ولا يكون بين الوسيلة والغاية إلا "المنهج"، وهذه عبارته بتمامها:"ومن تعلم النحو هيب، ومن تعلم العربية رق طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم الفقه نبل قدره".

تَدَبُّرٌ في اسْمِهِ تَعَالَى ٱلْوَلِيُّ

معناه– كما في "المقصد الأسنى": المحب الناصر، ولم يرد في القرآن معرَّفًا بالألف واللام إلا في آيتين من سورة الشورى.

والوليُّ في لغة العرب أيضًا المطر يسقط بعد المطر، ومرجع هذه التسمية إلى "توالي" سقوطه؛ أي تتابعه؛ فلذلك سمي وليًّا، فليس في هذا غرابة تبعث على البحث والسؤال.

لكن الحيرة والدهش يأخذانك عندما تعلم أن إحدى آيتي سورة الشورى اللتين ورد فيهما اسم الله تعالى "الولي" هي هذه:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾

تُرى أتكون هذه إشارة إلى أن عطاء الغيث من خزانة اسمه تعالى "الولي"؟! ولا يَفوتنَّك ما في "ينزِّل" بالتضعيف من معنى "التوالي"!

فإن سألت: ما شأن الغيث بالنصرة؟ أجابك القرآن بقوله:"فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر"، فهذه نصرة في الظاهر بعد تقدم الطلب.

وبقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾، فهذه نصرة في الباطن بتطهيره تخليةً بإذهاب الرجز، وتحليةً بالربط على القلب، ومجموعهما أفضى إلى نصرة في الظاهر بتثبيت الأقدام، والله أعلم.

سِحْرُ الصُّورَة

لعل انعطاف النفوس نحو "الصورة" الآن يمكن تعليله بأثر من ثقافة العصر، لولا أنه قديم قدم الحضارات البشرية الكبرى، فتعليله إذًا بظهور التليفزيون والسينما تعليل ناقص، يطوي الحقائق، ولا يثبت عند الفحص والتمحيص، وغاية ما يمكن قوله في هذا الأمر أن ظهورهما مكَّنا للصورة في نفوس الناس على نحو لم يُعرف من قبل في تاريخ بني الإنسان.

لكن للمسألة بُعدًا نفسيًّا آخر، وهو أن "الاستقرار المكاني" لا يدع النفوس إلا وقد خضبها بخضابه، فإذا هي مصروفة إلى كل ما له ثبات أو "استقرار"، كالصورة؛ ولذلك شاع فن التصوير في الحضارات الكبرى القديمة، حيث استقر أهلها حول الأنهار، بعدما انكفت نفوسهم عن الترحال.

لقد عرف المصريون القدماء هذا الفن، وعرفوا كذلك فن النحت، وهو ضرب من التصوير أيضًا، بينما عزفت نفوسهم عن الشعر والخطابة، فلا يحفظ من ذلك عنهم إلا شيء يسير، هو أبعد ما يكون عن الشعر في طبيعته الفنية العليا.

ولقد أذكر أن العقاد علل ذلك بأمر آخر، وهو أن وجود الكهانة في مصر آنذاك جعل "الأسرار العليا" مقصورة على طبقة الكهان، محظورة على عموم الناس، فَحِيلَ بين هؤلاء وبين مايشتهون من الشعر، لما هو مقرر- في رأيه- من أن الباعث الأعلى على قول الشعر إنما هو الوقوف على أمثال هذه الأسرار، ولا سبيل إلى ذلك وللكهانة سورتُها التي لا تنكر.

والحق أن هذا التعليل ربما فسر عزوف العامة عن قول الشعر، لكنه لا يفسر البتة عدم ظهور شاعر مبرز بين طبقة الكهان!

في "الصورة" أمر آخر ليس في الكلام المكتوب أو المنطوق، وهو اجتماع المعنى "من أول وهلة"، فلا حاجة إلى الترقب والانتظار لتعرف "ماذا بعد"، وإنما هي "البغتة"، ثم انقضى كل شيء!

ولا كذلك الكلام، فإنك محتاج إلى التمهل ريثما يفرغ محدثك، أو ريثما تفرغ أنت من القراءة حتى يتم المعنى في ذهنك، ويزيد الأمر صعوبة إذا كانت لغة الحديث لغة إعراب كالعربية مثلًا؛ لأنك مضطر فيها إلى التوقف حتى عن تصور المعاني الجزئية إلى أن يفرغ المتكلم أو الكاتب من أداء عبارته، فلعله يتصرف في ترتيب أجزاء الكلام، فلا يستبين لك حينئذ مراده إلا بالتمام.

والسبب في ميل النفوس إلى "الصورة" إنما هو "العجلة" في تحصيل الأشياء دفعة واحدة، وإباية التدرج حتى فيما لا سبيل إلى تحصيله إلا بطريق التدرج، كالمعارف والعلوم، "خلق الإنسان من عجل".

ومن تولُّع الإنسان بالصورة طلبها في الكلام، فظهر المجاز، وكانت الغاية منه أن يجمع على السامع "قلبه" ليقفه على "معنى" ما يقال له وقوف الناظر على أسرار صورة تراها عيناه، وتلمسها يداه؛ ولذلك نفرت نفوس البلغاء من كل عدول عن الحقيقة لا يعطف السامع إليها، أعني من كل مجاز لا تدعو إليه إلا محض صناعة الإنشاء.

لكن للكلمة مع ذلك السلطان على الصورة، فالوجود الحادث كله- وهو صورة- آيل إلى كلمة، فإذا لم يردك إلى من قالها، فقد فاتتك حقائق الأشياء.

مِنْ فِقْهِ الاسْتِغْفَار

قال جل شأنه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾[المزمل: 20]

الأمر بالاستغفار عقب الأمر بالصلاة، والزكاة، والإنفاق عمومًا، إنما كان لجبر ما يقع في أداء هذه العبادات من الخلل، وتنبيهًا للإنسان ألا يأخذه العُجْبُ بعمله؛ فإنه أحرى بالعاجز وأحجى أن يستقيل من عثـرته، لا أن يباهي بعجزه عن الوفاء بمقتضى خدمته!

ثم أعجب لهذه الخاتمة: "إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ"! قال في اللسان: "أَصل الغَفْرِ التغطية والستر. غَفَرَ الله ذنوبه أَي سترها"، فكذلك اللهُ يستر نقص أعمالنا، ويقبـلها على ما بها من العلل رحمة بنـا؛ إذ لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلًا للقبول، كما قال العارف ابن عطاء الله.

وهذه بشرى لمن عَقَل عن الله كلامه!

ومعنىً آخر، وهو أن الشح لما أعرق في النفوس، واستوى على الأفئدة، خاطبنا الله تعالى بهذا الخطاب: "وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا"، فأنزل الإنفاق في سبيله منـزلة الإقراض له تـعالى ترويضًا للنفوس، وتأنيسًا للقلوب؛ حتى تخلع عنها ربقة الكَزَاز، وهذا مع أن المال ماله، والملك ملكه، ونحن عبيده، وهو الغني عن العالمين، إن شاء أعطى، وإن شاء منع! ثم إن هذا القرض مقيد بصفة الحسن، وتحقيق ذلك فيه بأمرين: الإخلاص في العطاء، وعدم المن بعده.

ثم لم يزل سبحانه يتودد إلى خلقه، ويرفق بهم في أمره، حتى وعد المحسن جزاء إحسانه، وبين له أن نفع ذلك راجع إليه، فقال: "وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ الله هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا"؛ حفزًا في عموم الخطاب على المبادرة إلى جميل الفِعَال، مع أن أمر الله تعالى قَمِنٌ أن يطاع- لحق الآمر- من غير وعد بجزاء، ولا ثواب! فلما كانت هذه حالَنَـا في التلقي عن الله تعالى، وفي امتثال أمره سبحانـه، كنا أحوج ما نكون إلى الاستغفار، فأُمِرْنَا بِه.

مُبَا حثَـــةٌ

مَعَ أَبِي الفَتْحِ عُثْمَانَ بْنِ جِنِّي

كتب صاحبي الأديب الأريب أيمن عيسى يقول:

"استنكر سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنه قراءة سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:"ونادوا يا مالِ ليقض علينا ربك"، بترخيم المنادى (مالك)، وقال: ما كان أشغل أهل النار عن الترخيم؛ لأن الترخيم يأتي عادة في مقام التدليل، وأهل النار في مقام الجزع والندم. لكن هناك من ذهب إلى أن الذي حسَّن الترخيم هنا أن فيه الإشارة إلى أنهم يقطعون بعض الاسم لضعفهم عن إتمامه، فتأمله".

ثم بين مراده بما نقله عن ابن جنّي من قوله في المحتسَب: "إلا أن فيه (الترخيم) في هذا الموضع سرًّا جديدًا، وذلك أنهم- لعِظَمِ ما هم عليه- ضَعُفَت قواهم، وذلت أنفسهم، وصغر كلامهم؛ فكان هذا موضعَ الاختصار ضرورةً عليه، ووقوفًا دون تجاوزه إلى ما يستعمله المالك لقوله، القادر على التصرف في منطقه".

فكتبت تعليقًا:

الحق أني أستشكل تأويل ابن جنّي، إذ لا أفهم أن تتقطع أصوات أهل النار، في "الكاف" خاصة من اسم مالك عليه السلام؛ لخور قواهم وذلة نفوسهم، مع أنهم يقولون بعدها:"ليقض علينا ربك"، وقد كان يسعهم ردها- لو صح هذا التأويل- إلى أخصر منها، مع ما حكاه القرآن من خصامهم، وحديث بعضهم مع بعض، ومع غيرهم، فليس الخور بمانع إذًا من الكلام، بل من اللجاج والخصام.

إنما يلوح لي أن أنفاسهم تنقطع ههنا "هلعًا ورعبًا"، لا خورًا وضعفًا؛ وذلك أنهم إذا نادوْا نظر إليهم المنادَى، وما أدراك ما حال من نظر إليه خازن النار نظر السخط والغضب؟!

لكأني أتمثله حينئذ عند النار يحثها ويسعى حولها، كما أخبر المصطفى ﷺ، وأهل النار يصطرعون فيها، ويتقاذفهم لهيبها، فإذا تمنوا الموت نجاة من العذاب قصدوا إلى خازنها، وإنه لفي ذلك مقبل على عمله، منصرف إليـه بما طُبع عليه من الوفاء بالأمر الإلهي، فهو يُضرم النار إضرامًا، كلما خبت زادها سعيرًا، فإذا ما ناداه أهلها لم يكادوا يلفظون الحروف الأُوَل من اسمه إلا حانت منه التفاتةٌ شديدة

مِلْؤُها غضبٌ فاتك ونُذُرٌ من عذاب بئيس.. فحينئذ تخبو الآمال.. وتخرس الألسنة.. وتنقطع الأنفاس، فلا يبلغ أهل النار من اسم خازنها إلا أن يقولوا: "يا مالِ".

فإذا ما استردوا أنفاسهم بعد "بغتة النظرة"، أعادوا النداء كاملًا، ثم أتبعوه بما قَصّ القرآن عنهم، وبهذا يمكن الجمع بين القراءات المتواترة حيث اكتمل النداء، والشاذة حيث وقع الترخيم، والله أعلم.

ولقد يسع النحاةَ منذ اليوم أن يتخذوا سببًا آخر للترخيم سوى ما ألفوه.

ونسأل الله تعالى العفو والعافية، وأن يجعلنا من الزور الأعظم، آمين بجاه النبي المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

في قَوَاعِدِ الغَزَل

كتب صاحبي الأديب الأريب أحمد عبد المرضي هذه الغزلية الرقيقة:

فإن كان يُرضيكمْ مِن الهَجْرِ ما أرى ... فإني- لعَمْرُ الله- آلَمَني الهَجْـرُ

وإن تَقْطَعوا وَصْلي فإني ببابكم ... وإن تؤثروا هَجري فما طَبْعيَ الغَدْرُ

ولا تحسبوا أني أكافئ صدَّكمْ ... بصدٍّ، ولكني فتى شيمتي العُذرُ

يعيش مقيمًا للوداد وفاءَه ... ويكتُم شوقًا طالما جنَّه الصدرُ

ويُطفئ لَوْعاتِ الهوى في فؤاده ... بدمع سَكوبٍ ليس يَخفَى به سِرٌّ!

فكتبت تعليقًا:

جعلتَها- يا مولانا- نصفين: محضت لنفسك أحدهما، وشركت حبيبك في الآخر، "تلك إذًا قسمة ضيزى".

وما أظنك أردت إلا الحبيب الذي هو الحبيب، لا الصديق ولا النسيب؛ لأن هذين لا يصلح منهما إيثار الهجر إلا أن يكونا واجدين، والحبيبة ليست كذلك، فربما هجرت تَدَلُّلًا:

وبعضُ الصَّدِّ من فعلِ الدَّلالِ وبعضُ الهجرِ أدعى للوِصالِ

وإذ كان ذلك كذلك، فما كان لك أن تُعرِّض بقولك: "فما طبعي الغدر!".

ولا كان لك أن تقول:"شيمتي العذر"؛ لأنك نقضت دعواك بالعتاب، ومن عاتب فما عذر، "من نوقش الحساب عذب!".

ولا كان لك- ختامًا- أن تفتخر في معرض التودد، وإن كنتَ في ذلك نحوت منحى المتنبي وعمر بن أبي ربيعة، والأول مصروف عن حقيقة العشق ببغيته، والآخر مصروف عنها بلذته، فما فيهما في هذا الباب قدوة لمقتدٍ!

تقريعُ يهُود (١)

في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾[الجمعة: 7-6].

الأمر بالنداء بجملة الصلة أوقع في تقريعهم، والنعي عليه، وإظهار كذبهم، من النداء بالاسم، كما لو قال: يا أيها اليهود، أو يا يهود، أو يا معشر يهود، ونحو هذا. بيان ذلك ما جاء في معنى الفعل (هاد) الوارد في جملة الصلة، قال في الصحاح:"هادَ يَهودُ هَوْدًا: تابَ ورجع إلى الحقّ، فهو هائدٌ وقومٌ هودٌ. قال أبو عبيدة: التهَوُّدُ: التوبة والعمل الصالح". فمن هذا الوجه فيه تثريب عليهم، وفضح لدعواهم، كما لو أَمرتَ بالإنفاق شحيحًا يدعي الجود، فقلت له: هلمَّ! أنفق أيها الكريم! تريد أن تزيف دعواه بالمقابلة بينها وبين فعله في موطن الفصل، وهذا غاية الزراية بهم.

فإن قيل: إن في ندائهم بـ (يهود) مثلَ ذلك؛ لوحدة الأصل اللغوي، قلت: كم جنت العَلَمِيَّةُ على حقيقة الأوصاف في الأسماء، فنُسيتْ إلا في بطون المعاجم! وهل يحضرك الآن في كلمة (يهود) إلا خصال السوء جُمَعَ، مع أن الأصل اللغوي- على ما رأيت- حسن؟!

تَقريعُ يَهُود (٢)

وذلك في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام يخاطب قومه: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾[البقرة: 61].

فطوائف المفسرين على أن المراد بـ "الَّذِي هُوَ أَدْنَى" ما سألته بنو إسرائيل، ولو قيل: هو عين سؤالهم، لكان وجهًا، فلا تكون المقارنة بين طعامين، ولكن بين حالين.

بيان ذلك أنهم لما آثروا ما اشتهوْه على ما منحهم الله تعالى إياه، قال لهم نبيهم منكرًا: "أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ"، وهو حال اختياركم لأنفسكم، "بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ"، وهو حال اختيار الله تعالى لكم؟! وعلى هذا التأويل تصح هذه الكلمة نفسها لو أن الله تعالى كان قد رزقهم مما تنبت الأرض، وسألوه هم المن والسلوى؛ لأن مدار الحديث على حالين، لا على نوعين من الطعام.

وجماع الأمر في هذا الباب ألا تضيق بحال تكون عليها حتى يكون

الله تعالى هو الذي يخرجك منها، ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ ﴾[الإسراء: 80]، وإلى مثل هذا أومأت الحكمة العطائية:

"إرادتك التجريد، مع إقامة الله إياك في الأسباب، شهوة خفية، وإرادتك الأسباب، مع إقامة الله إياك في التجريد، انحطاط عن الهمة العلية".

وكذلك كان، ألا ترى أنه قد قيل في جواب طلبهم:"اهْبِطُوا"؟!

على أن هذا التأويل يقتضي ألا تكون "أَدْنَى" على بابها من التفضيل الذي يقتضي الاشتراك، وإنما هي لمحض إثبات الصفة لما وُصِفَ بها، كما يقال: العسل أحلى من الخل، ولا يراد به إلا محض إثبات الحلاوة للعسل، لا أن الخل شريكه فيها.

مُلاطَفَة

كتب الدكتور أحمد كريم بلال مقالًا ماتعًا في مجلة "أعاريب" التي يرأس تحريرها الدكتور تامر أنيس، وفي هذا المقال استنكر احتذاء النقاد العرب المحدثين نقاد الغرب في استعمال كلمة "تابو" أو "طابو" للإشارة إلى ما يقدسه الناس، ويعلونه عن رتبة النقد، في كلام مسهب تحسن بالشادي مطالعته، وانتهى إلى أنه لا يرى بأسًا في استعمال كلمة "المحظور" بدلًا من هذه الكلمة الإفرنجية، فقلت:

قرأت مقالة "المحظور" حتى نَكِرتُ مقالة النقاد (تابو)!

فأجاز:

وكم من ناقدين لهم فقيه إلى الرحمن ردهم فتابوا

فقلت:

فقيه ساقه للنقد حب ولم يصرفه عن أدبٍ عتابُ

فأجاز:

لكم في الفقهِ والنقد ارتجال صحيحٌ قد أقـرّ به الكتابُ

فقلت:

و"تــاءٌ" قبل "آبٍ" في ثلاثٍ "كتاب" أو "عتاب" أو "فتابوا"

يشق القول عندي بعدهنه ولي عند المشقة مستتاب!

الألفَاظُ العَامِّيَّةُ
فِي الْأَدَب الفَصِيح

نشر بعض الأصدقاء قصيدة كتبها أحد الأُسَرَاء، وتقفى فيها معلقة عمرو بن كلثوم، غير أنه أدرج فيها- تظرُّفًا- طائفة من الألفاظ العامية التى حبتها من الجمال صورة مشرقة تصل ما غبر بما حضر، فكأنك تجمع التاريخ بين يديك، أو تراه أمام عينيك، فعاب عليه بعضهم ما به مناطُ فضلِها، وقدح فيما عليه مُعَوّلُ شرفِها، واستغاث أهلَ اللسان وشيعتَه، ليدفع بهم هذا العادي وبدعتَه، فكتبت مجيبًا:

ألا أنعم بتنكيت ومزح ... يبث-كنايةً - همًّا دفينا

فليس يليق بالأحرار بوْحٌ ... يثير شماتة "المِدَّهولينا"

فبعضُ الناس ليس تراه يعدو ... إذا ما رُزتَه ماءً وطينا

خلا من كل مكرمة وفضلٍ ... فلا يؤذيه ضرٌّ المؤمنينا

فدع عنك الملامة للمُعنَّى ... فما خلّى طريق العاقلينا

اسْتِلْهَام

قال بعض الصالحين:

شربتُ الحبَّ كأسًا بعد كأسٍ فما نَفِدَ الشرابُ، ولا رَوِيتُ

فكتبت مستلهمًا:

فلا في الوصل يرقا دمعُ عيني ولا في بُعدهم عني هَنِيتُ
يعاودني الحنينُ بكلِّ حالٍ وأُخفي لوعتي في "قد رضِيتُ"
فسَقيًا، ثم سَقيًا، ثم سَقيًا عسى يومًا أُفيق، وقد غَنِيتُ
وحينئذٍ يعاودني حنيني فأنشدُ ذاكرًا ما قد نسِيتُ
شربت الحب كأسًا بعد كأس فما نفد الشراب، ولا رويت!!

مُسَابَقَة

وذاتَ لـيـلـةٍ بـدا ... لـصـاحـبـي، كـذاكَ لِي
نُـجـري سـبـاقًـا بيننا ... وكـان لـيـلاً "فُـلَّـلي"!
بـاغـتُّـه، وافـزتُـه ... كالسيل يهـوي مـن عـل!
قـد فـقـتُـه في الـعـدو ... حتـى مـال بي مـا لاح لي
إذْ كـلُّ وافٍ في الـدُّنَـا ... مـرَدُّه لـلـخـلَـلِ
قـد انـكـفـأتُ سـاقـطًـا ... فَـوَيـلـلي، ووَيـلـلِي!
فـصـاح صـاحـبَـيَّ بي ... رفـقًـا، ولا تَـعَـجَّـلِ!
فـقـلـت: هـبَّـتْ هِمَّـتِي ... فـلـم تُـطِـقْـهـا أرجـلِي!

عِبادُ الرَّحمَن

في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾[الفرقان: 65-63].

لم يرد في دعاء عباد الرحمن ذكر للجنة، وإنما كان سؤالهم صرفَ العذاب؛ لأمرين:

أحدهما: أنهم في شك دائم من قبول أعمالهم، فمهما أتوْا بها مستوفاةً، رأوْها منقوصة، قد مسها طائف من ضعف الإنسان وعجزه، فمشهدهم الدائم في هذه الدار إنما هو تقصيرهم، فلما لم يروا من أعمالهم إلا نقصَهَا، ومن نفوسهم إلا ضعفها، وقع لهم أنهم مستحقون للعذاب، فكان من سؤالهم ما حكى الله تعالى عنهم.

والآخر: أن سؤال الجنة بمجرده لا يكفل لصاحبه- لو أُجيب- النجاة من النار، فلعله يعالج بعض العذاب أولًا بما كسبت يداه، ثم يدخل الجنة بعد ذلك، ولا كذلك من سأل النجاة من النار؛ فإنه إذا أجيب لم يكن نصيبه منها إلا مجرد الورود تحلةً للقسم. فتأمل هذا، وانظر- حين تدعو الله تعالى- كيف تدعوه؛ فإنا لم نرَ خبطًا كالخبط في الدعاء!

بُكَائِيَّةُ "الشَّيخِ وَالغَابَة" لِلجَوَاهِرِيّ

قرأت مقطعين من قصيدة "الشيخ والغابة" للجواهري نشرهما بعض الأصحاب، فأصابا مني "مواقع الماء من ذي الغُلة الصادي"، حتى لقد قرأتهما على زوجي وأولادي.

فالقصيدة معجبة حقًّا، وهي إذا قرئت في جوف ليل بهيم، بصوت متهدِّجٍ متكَسِّرٍ تَكَسُّرَ الضعف لا التدلل، أمام نار تتراقص ألسنةُ بقاياها إيذانًا بالأفول، كانت آيةَ الفناء، وعنوانَ النهاية؛ إذ يخطئ من يظن أن الموت خاتمة المطاف، وبأي شيء يشعر الميت مما في حياة الأحياء؟! إنما النهاية مقدماته، حين يكون نظر الشيخ إلى وراء، وحديثه عما مضى، ورجاؤه حسرةً على ما فات، فهذا هو الحي المائت، القائم الفائت، الذي يعزي نفسه بـ "كنت"، قبل أن يرثيه الراثون بـ "كان"!

ورأى الشيخُ ظِلالَ الغابة الدكناء..

أشباحًا تلوحْ!

بعضها يعصرُ بعضا؛

فتمنى لو يروح!

ثم غامت صورٌ

ردَّتهُ كالهرة أسيان شجيّا!

آه.. لو كان فتيّا،

آه.. لو ردّت إليه..

آه.. مما فات شيّا

آه.. لو لم يعلُ فَوْديه..

من الشيب مُسوح!

آه.. لو كان لذي قلبٍ..

مع الشيب طموح!

...

آه يا شيخُ!

ومن يدنيك من عهد الشباب؟!

أغلقت من دونه سودُ الليالي..

ألفَ باب!

لا تَحُم كاللص مذعورًا..

وكالوحش بلا ظُفر وناب

أنت لا تَسْطِيع أن..

تقطف عنقودًا تدلى بالعريش،

ألفُ كفٍ للشباب الحلو..

أولى منك في..

هذا الشراب

آه.. يا شيخ لو اسطعتَ..

رجوعًا للشباب!!!

خَاطِرَةٌ في بَيْتٍ جَاهِلِيّ

قرأت هذا البيت للنابغة:

دعاك الهوى، واستجهلتْك المنازل وكيف تصابي المرءِ، والشيبُ شامل؟!

فتحركت النفس إلى أن أقول فيه شيئًا.

قوله:"استجهلتك المنازل" معناه دعتك إلى أن تتلبس بحال كتلك التي كانت لك في غابر الأيام، حين كنت تلم بالديار، وفيها أهلها، فإذا أنت مضطرب مضطرم، يأكُلُ مهجتَك هوى طاغ، وشوق ثائر، وعقل ذاهب، وقلب ذائب.

وإنما سمى الشاعر كل ذلك جهالة؛ لأن لعب الهوى بقلوب الشيوخ منقصة؛ وذلك أن الكبر عِبَر، فهو مظنة الحكمة، ومعدن الرشاد، ولا يثبت شيء من ذلك مع الهوى؛ ولذلك كُني عنه بالضلال في قوله تعالى حكاية عن أبناء يعقوب عليه السلام، يخاطبون أباهم:"تالله إنك لفي ضلالك القديم"، يعنون تمكن حب يوسف عليه السلام من قلبه.

من أجل ذلك سمى النابغة هذا الدعاء من المنازل "استجهالًا"، ثم قال كالمعلل لذلك:

وكيف تصابي المرءِ، والشيبُ شامل؟!

بَـحْـث
عَلَى طَرِيقَةِ الشَّيخِ عَبْدِالقَاهِر

قال تعالى في صاحب الجنتين ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾[الكهف: 44-43]

لا يتسلط النفي في الآية على وجود الفئة، وإنما على نصرتها مع إثبات وجودها، كما تقول:لم يأتني زيد فرحًا، فإنه لا يُفهم منه نفي إتيانه بتة، ولكن نفي الفرح عنه حين أتى؛ إذ لو أردت نفي الإتيان، لم يكن لإيراد الحال معنى، ولكان حسبَك أن تقول: لم يأتني زيد، تجيب من سألك عن مجيئه، كان أم لم يكن؟ خلافًا للأول، فإنه جواب من سأل عن الكيفية، وبهذا نطق القرآن؛ فإنه حكى على لسان صاحب الجنتين قوله في حوار صاحبه المؤمن ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾[الكهف: 34]

ولَشَدَّ ما يتجه فهم الآية على هذا؛ إذ لو تعلق النفي بوجود عشيرة له، لربما قال قائل: لعله لو كانت له عشيرة، لمنعته مما نزل به وبجنتيه. فكان إثبات وجودها مع نفي نفعها أبلغ في بيان عجزه وعجزها، وأدل على كمال الاقتدار الإلهي.

فإن قلت: فلِمَ لَمْ يَدخل النفي على الفعل ابتداء، أعني فعل النصرة، فلم يقل مثلًا: فلم تنصره فئته؟ فالجواب أن من عَدِمتَ عونه فعلًا فقد عَدِمتَ وجوده حكمًا، فناسب أن يدخل النفي على ذات الفئة لفظًا، وإن كان المراد نفي نصرتها. وفيه- مع هذا- زيادة معنى، فإنه لو قال: فلم تنصره فئته، لاحتمل أنها تركت النصرة مختـارة مع القدرة، فلما توجه النفي إلى الذات، جعلها كالعدم، فكان نفيًا للقدرة، لا لمجرد الإرادة؛ إذ المعدوم لا تقوم به صفة أصلًا.

صَرِيعُ الغَوانِي أو "مَأْسَاةُ عِجْلٍ!"

كتبت تعليقًا على "مأساة عجل" التي نشر تفاصيلَها أخونا الأديب الناقد الدكتور أحمد كريم بلال، وخلاصتُها أن عجلًا أُعِدَّ ليكون أضحيَّةً، فلما دنا أجلُه، وأحس بالخطر قد أحدق به، ثارت في نفسه لذةُ الحياة، فأبدى من الشموس والحران ما لم يألفه أصحابُه، فاحتالوا حتى أدخلوا عليه أنثى من جنسه، فلم تزل به حتى أمكنت منه، فختلوه، وخدَّروه، ثم اجتمعوا عليه، فذبحوه، لله أبوه!

فقلت معتبرًا:

تثنَّت، فما أبقت من الحزم مُسْكَةً

لدى "العجلِ"، حتى طوَّحَ الرأسَ جازرُهْ!

وإن "ذوات التاء" إن رُمن حيلةً

فهيهاتَ أن يبرَا من السوءِ حاذرُهْ!

أبى الحب إلا أن تصان عهوده

فليس محبًّا خائنُ العهد غادرُه!

نَمَاذِجُ من تَرْجَمة الشِّعْرِ
ومن الترجمة به

فمن ترجمته قول بعضهم: خيالكَ في عيني، وذكركَ في فمي
ومثواكَ في قلبي، فأين تغيب؟

فترجمته إلى الفرنسية:

Ton image se révèle devant mes yeux،
Ton souvenir subsiste sur ma langue،
Ta demeure se situe au fond de mon coeur،
Où donc te voileras-tu?

ومن الترجمة به:

Les allusions sont parfois plus significatives que la pa-role directe.

وفي الإشـــــارةِ مَـغْـنًـى إذا تــــــروم بــيـانـا
عــن كــل لـفـظٍ صريــح تـــســوقــه بــرهـــانــا
ولـــيـــس ذلـــك دومًـــا لـــكـــنـــه أحـــيـــانـــا

وكذلك:

An Appel a day keeps the doctor away.

ومَنْ يجعلِ التفَّاحَ مِن قُوتِ يومِهِ يموتُ طبيبُ الحيِّ، وهْوَ صَحِيح

إِشَارَة

نُصبت الكعبةُ للدلالة؛ وذلك أن الخلق لا يُطيق أكثرُهم التوجهَ إلى غيرِ جهة لوقوعهم تحت سلطان الحس، فإذا انعدمت معارف الحس رجع الأمر إلى أصله؛ ولذلك كان قوله سبحانه " فأينما تولوا فثم وجه الله" في الحائر الذي يجهل القبلة؛ أي عند انعدام معارف الحس في حقه.

والأمر في الحقائق على هيئته في الشرائع؛ ولذلك قالوا: منتهى العلم بالله الحيرة فيه، والعجز عن درك الإدراك إدراك!

اسْتِدْرَاك

كتب بعض الأدباء في قوله تعالى ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾: قال أبو الثناء: "ألا ترى كيف نفى الله عمن خشي غيره سبحانه؛ الفقهَ؟!".

فكتبت هذا التعليق:

في النفس من كلام أبي الثناء– رحمه الله– شيء؛ وذلك أنه أطلق مقيد القرآن، فالله سبحانه يقول:"لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ"، فجعل "تغليب" خوف الناس على الخوف منه سبحانه علامة انعدام الفقه، والتغليب يقتضي وجود مغالبة، والمغالبة توجب الاشتراك في المحل، والاشتراك يوجب المقارنة، وههنا كَمُنَ المكر!

ولا كذلك الأمر في كلام أبي الثناء، فإنه جعل محض وجود الخوف من الناس، في أي موطن كان، علامةً على ذلك، فما نصنع

في قول العبد الصالح عليه السلام:"ففررت منكم لما خفتكم"؟! أم كيف، وبعدها: "فوهب"؟! والله أعلم

فكتب إليَّ صاحب لي أديب يسأل: هل الأمر متعلق بالفرق اللغوي بين الرهبة والخوف؟

فكان هذا جوابي:

هو متعلق- في فهم الآية- بنسقها النحوي؛ لأنه بني على المفاضلة: "لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله"، والشيخ أبو الثناء أخرجها إلى العموم، فجعل كل خوف من مخلوق قادحًا في الفقه، وليس الأمر كذلك على إطلاقه، وإنما فيه تفصيل، فإن العارف ربما أظهر خوفًا من المخلوق من حيث هو مجلى لغضبة إلهية، لا من حيث هو، وعلى هذا يؤول كلام الكمَّل رضي الله عنهم وأحوالهم في هذا الشأن.

وغيرُ العارفين صنفان: فمَن قدَّم خوف الله تعالى مطلقًا، فقد أوتي فقهًا، ومن عكس ذلك، فهو المحروم!

فإن قيل: فما الفرق بين الصنف الأول وبين العارفين؟

قلت: إن أهل هذا المقام لا يرمقون خفيَّ القدرة الإلهية الباطشة في المخوف من الخلق، والعارفون لا يرمقون سواها.

الأولون مع ما ظهر، والعارفون مع ما بطن.

الأولون يثبتون خوفين: شرعيًّا من الله تعالى، وطبيعيًّا من المخلوق، ثم يقدمون مقتضى الشريعة على مقتضى الطبيعة، وثمة فقههم. والعارفون مع الشريعة أبدًا، لامِّحاق الطبيعة فيهم بأنوار المشاهدة، فلا خوف إلا من الله تعالى لغلبة التوحيد عليهم في كل شيء. والله أعلم

آيَةٌ جَامِعَةٌ فِي الأُصُول

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾، فهذا القرآن.

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، فهذه السنة.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فهذا الاجتهاد.

فكتب إليّ بعض الفضلاء يقول: هي الآية الأقوى في إثبات حجية السنة، ويتأولها القرآنيون على أن التبيين هنا هو التبليغ المتعلق بالذكر فحسب.

– فقلت: وجواب ذلك أن كل عالم بلسان العرب موقن أن في التبيين معنى زائدًا على البلاغ؛ لأن العرب لا تمنع في كلامها أن يبلّغ امرؤ أمرًا دون أن يبينه، بل دون أن يفهمه؛ ولذلك قال ﷺ: بلغوا عني ولو آية، وقال: فرب مبلَّغ أوعى من سامع، والسامع هو المبلِّغ، ومع هذا فقد فاته الفهم، وكذلك التفهيم؛ لأنه فرعه وثمرته، فالحاصل أن قوله تعالى:"لتبين للناس" يتضمن البلاغ ولابد، وشيئًا زائدًا، وليس إلا الإيضاح والكشف، والله أعلم.

- فقال: جزاكم الله خيرًا. فهل يمكن القول من هذه الآية، أن السنة (مبينة) للذكر فحسب، ولا يمكن أن تأتي بتشريع جديد لا أصل له فيه؟

-فقلت: لو كان نظم الآية "لتبين للناس الذكر"، أو "لتبينه للناس" لأمكن المصير إلى هذا المعنى، لكنّ مولانا قال: "لتبين للناس ما نزل إليهم"، فعَمّ كل منزَّلٍ من قرآن وسنة، "ألا وإن ماحرم رسول الله كما حرم الله"، والله أعلم.

مِدْحَةُ المسْتَصْفَى

قلت:

إذا رُمتَ في علم الأصول مصنَّفًا ... يُنقِّي صريحَ العلم من كل شائبِ

فدونكَ من بينِ التصانيفِ كلِّها ... كتابَ الغزالِي، فيه نيلُ المطالبِ

يسوق دليلَ الشرع من غير شبهةٍ ... تُغادرُ ريْبًا في ضمير المُغالِبِ

كذلك إن تطلب دليلًا لذي الحِجَا ... تجدْه نقيًّا من شِيَاتِ المَعَايبِ

فمَن أمَّ مستصفاه أهداه صائبًا ... من القول والبرهان في كل رائبِ

كتابٌ يروم الحقَّ من كل وجهةٍ ... لذاك علاه النورُ من كل جانبِ!

فخذْهُ، فإن تشدُدْ عليه يدًا تكنْ ... عليمًا بفصل القول في كل نائبِ

وَرَحَى المَنِيَّةِ تَطْحَنُ!

- **قال أبو العتاهية:**

النَّاسُ في غَفلاتِهِمْ ورَحَى المَنِيَّةِ تَطْحَنُ!

فكتبت تعليقًا عليه:

عندي أن هذا البيت من أعجب ما تقرأ من كلام الناس في التنبيه على هذه الحال؛ وذلك أن كل جزء منه دال على جميعه. ألا ترى إلى قوله:"الناس في غفلاتهم"، كيف صاغه جملة اسمية خالصة، فنبهك على غياب الحركة، وهذا أوفق في تصور الغفلة؛ فإنها على التحقيق خمود يعتري الذهن، فيصرفه عن معالي الأمور إلى سفسافها، ثم الخبر مغيب في الجار والمجرور، والغيبة ضرب من ضروب الغفلة، ولعله أشدها! ثم هي ليست غفلة واحدة، ولكنها غفلات آخذ بعضها بحُجُزِ بعض، فما إن يفق المرء من إحداها حتى تضرب نفسه أخرى.كل ذلك:

ورَحَى المنِّيةِ تَطْحَنُ!

واو الحال شأنها عجب! فهي فاصلة واصلة، فأما فصلها فكونك تستأنف بعدها حديثًا جديدًا كأنه مبتوت مما قبلها، وأما وصلها فردها إياك إلى ما قبلها كأنك ما انفككت عنه إلا لتزداد قربًا منه، وكلا الأمرين مُسعِدٌ للمعنى الذي أراده الشاعر، فأما الانفصال فلكمال الدلالة على غفلة الناس عن فعل المنايا، وأما الاتصال فلبيان الأمر على ما هو عليه، وأن الموت أقرب لابن آدم من شراك نعليه!

مباحَثَةٌ

لَا مِنْهُمْ، ولا مَعَهُمْ!

كتبت هذه الخاطرة:

ذكر الله تعالى امتناع إبليس من السجود لآدم عليه السلام، فقال في الأعراف: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، وقال في الحجر: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

فمرة قال: "من"، ومرة قال: "مع"، فطلبت الفرق بينهما، فإذا نفيُ كونه "من" الساجدين تنبيهٌ على أن ذلك لم يقع له من الله اصطفاءً، وإذا نفيُ كونه "مع" الساجدين تنبيهٌ على أن ذلك لم يقع منه اختيارًا.

- فـ"من" لنفي الاصطفاء؛ ولذلك قال:" فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم" الآية، فنسب الإغواء إلى الله تعالى؛ لما تقدم من عدم الاصطفاء.

- و"مع" لنفي الاختيار؛ ولذلك نسب الإباية لنفسه في قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. والله أعلم

فكتب إليَّ صاحب أديب، يقول بعد السلام والتحية:

تحليل رائع ورائق، لكن عندي فيه مشكلة: أن كلا الوجهين (الاصطفاء والاختيار) يقع أحدهما موقع الآخر، فنقول: لم يكن من المصطفين أو مع المصطفين، ولم يكن من المختارِين للسجود أو معهم.

والتعليل كذلك فيه مشكلة، وهو أن كلتا الآيتين فيها نسبة الغواية إلى الله تعالى، الأعراف:"فبما أغويتني"، والحجر: "رب بما أغويتني"، فخلاصة الإشكال عندي أن كل موضع يجوز تنزيله على الموضع الآخر، فلا أرى فرقًا؟ فهلا بيَّنتم لي الوجه بصورة أوضح؟

فكتبت إليه بعد السلام هذا الجواب:

إليك ما حضرني في جواب الإشكالات:

أما وقوع "مِن" و"مع" موقع الآخر، فلا خلاف فيه، بل إن هذا نص القرآن، "مع الساجدين"، و"من الساجدين"، إنما النزاع في دلالة كلٍّ، فـ "من" في آية الأعراف للتبعيض؛ لجواز سد بعض مسدها،

تقول في المعنى:(لم يكن بعض الساجدين)؛ أي واحدًا منهم، والساجدون ملائكة، وهم مصطفون، فنَفْيُ كونه بعضَهم، نفيٌ لجريان معنى الاصطفاء فيه.

- أما "مع" فظرف مكان، فكأنه "شطن" عند سجود الملائكة في الحس، كما شطن في المعنى، ومكان السجود لا يجري فيه معنى الاصطفاء الذي أسلفت ذكره في شخوص الساجدين، ويسعد ذلك ابتداؤه في الجواب بقوله: "لم أكن لأسجد" الآية.

- وأما نسبة الإغواء إلى الله تعالى في الحالين، فجوابه قريب، وهو أن الاختيار لا يتمحض لمخلوق، كما تقول: فعلت كذا بإذن الله، فليست نسبة الفعل إليك بمانعة من نسبته إلى الله تعالى بوجه آخر، ولا هذه بنافية مسئوليتك عنه.

المُثَلَّثَة

وهي قصيدة اشترك في كتابتها ثلاثة: الدكتور أحمد الليثي، وريمة الفلا، وكاتب هذه السطور، غير أنها خرجت نفَسًا شعريًّا واحدًا، كأنما صدرت عن نفْس واحدتها توزعتها ثلاثة أبدان.

كتب الدكتور أحمد الليثي:

أنا المجذوب ياقومي ... فرفقًا بالمجاذيب

رويت الناس من وجعي ... فحاروا في أعاجيبي

فكتبت ريمة الفلا:

أذوب لأجلهم ألمًا ... وأنثر حولهم طيبي

أشاطرهم سنا عمري ... وبرد الموت يسري بي

أبيع العمر أمنية ... فيمضي دون تأنيبي

وأُطعَم من مرارته ... أيهوى العمر تعذيبي؟!

يقول الناس من هذا؟ ... أجيب: من المجاذيب

فكتبتُ:

ونـــور الجـــذب يمسكني ونـــــار الجـــذب تمـــضي بي
عـلـيـلَ الـقـلـب مضطربًا بـــإبـــعـــادٍ وتـــقـــريـــب
وإيحـــــاشٍ وإيـــنـــاسٍ وإمـــــــــراضٍ وتـطـبـيـب
ألـــفـــت مـــــرارتي حتـى غـــدت أنـــسي وتـطـريـبـي
وصــــــارت لـــذتي ألمـــي قـــد اســتـعـذبـت تعذيبي
فـــلا تـــســـأل فـــما عـجـبٌ فـقـلـبـي قـلـب مجـــذوب!

تأْويل

قال بعضهم:

لا تَشْكُ للنَّاسِ جُرْحًا أَنتَ صَاحِبُهُ لا يُـؤلِمُ الجـرحُ إلا مَـنْ بِـهِ أَلَمُ

فكتبت هذا التعليق:

هذا بيت غريب! فهو لأول وهلة يحملك على سوء الظن بالشاعر لفرط سوء ظنه بالناس؛ إذ لا يرى فيهم من يشركك آلامك إلا من كان به ألم. لكن هذا نصف المعنى، أو هو نصفه الظاهر، وبقي نصف آخر، وهو أن يقال:"فإذا كانت آلامك لن تجد سوقها النافقة إلا عند المبتليْن من أمثالك، فحَرِيٌّ بك كتمانُها؛ لكيلا تزيد المعذبين عذابًا، إذ يجتمع عليهم ألمان: ألمهم لأنفسهم، وألمهم لك!"، وهذا على تقدير أن مراده بـ "من به ألم" كل مبتلى، لا عين المجروح، واللغة لا تأباه، وحسن الظن مقدم!

وبَذْرَةُ الهَوَى ثِمَارُها الهَوَانْ!

لطالما يُميل رأسَهُ على جدارِ حجرتهْ
يُـرخـي عِـنـان الـذكـريـاتِ

ذكـــريــــاتِ صـبـوتـهْ
فكم توقدتْ جمارُ مهجته!

وكـم أســىً.. وكـم شجىً
قـد احـتـسـى في وَحـدتـهْ!

ذكـــرتُهـــا عـشـيـةً
كانت تقوم مثلَ الخيـزُرَان

وتَـعـلُـك الـلـبـانْ
كـانـت تـلـوح صـورةً بهيهْ

ونَـسـمـةً عـلـيـلـةً نـديَّـهْ
ومِـن وراء لِينها أبيّةً عصيهْ

وإن أرادت حاجةً، وحاجَجَتْ..عتيهْ
وكان حسبي طرفَها لتكسِبَ القضيَّةْ!

تـذوب رقـةً، فـتـأسِرُ الجَنان
وبَـذرةُ الهوى ثمارُها الهـوانْ

وسَكرةٌ تجوز بالمحب عالَمَ الزمانْ!
ويخـتـفـي المـكـانْ

فـيـخـرَسُ الـلـسـانْ
ويُـذعـنُ الـبـيـانْ

ولا تكون حـاجـةٌ لِـتَرجُـمـانْ
إذ لا كمالَ في الهوى وثَمَّ قائلان!

أَضْعَفُ الإيمَانِ!

تفكرتُ مرارًا في قوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث تغيير المنكر: "...، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان".

تساءلت كيف يكون إنكار القلب تغييرًا للمنكر، وهو لا يعدو صاحبه؟! إنْ هو إلا خاطرةٌ مرت بقلبه، ولم يَجْرِ بها لسانُه، أو جرى تمتمةً خافتة لا تكاد تبلغ أذنيه.

ثم بدا لي أن المقصد الأسنى حينئذ إنما هو أن يحفظ المؤمنُ على نفسه قلبَه حيًّا نابضًا، يعرف المعروف، وينكر المنكر، وإلا فلو سكت القلب في هذا الموطن، مع عجز الجوارح، لألفت النفوس المنكر، واستوحشت من المعروف، وهو زمان قادم لا محالة.. صح بذلك الأثر، وتراءت تباشيره في أنحاء الأرض.. زمانٌ لا يُعرفُ فيه معروف، ولا يُنكر فيه منكر، ويعود الإسلام بذلك غريبًا كما بدأ، فطوبى حينئذ للغرباء!

وفي الجملة، فأهون الأمر أن تحفظ تلك المضغة المباركة لكيلا تنوبها النوب. وهذا كله في ظاهر التأويل، ومن وراء الظاهر كلام للأكابر " يحتار فيه العالم النحرير!". والله أعلم

مَعَ الفَرِيدَةِ الذَّاكِرِيَّة

أنشد الشيخ الأديب العراقي المفضال ذاكر الحنفي لنفسه:

أُسَائِلُ مَنْ لاقيْتُ عَنِّي، وما درَوْا بأَنِّيَ وَهمٌ في دُجَى اللَّيلِ لائحُ!

فكتبت أن هذا بيت من الحقائق؛ إذ خطر لي أن دجى الليل ليس إلا هذا الوجود الحادث الذي يلف الممكنات، واللّوَحان فيه البروز من شيئية الثبوت- وهي سابق العلم الإلهي- إلى شيئية الوجود- وهي هذا العالم وما حوى. وإنما كان المرء وهمًا في وجوده لانتفاء استقلاله بنسبة التصرفات إليه، وبهذا جاءت الشرائع، فليس قولك "لا حول ولا قوة إلا بالله" إلا تحققًا بهذا المعنى!

ثم إن هذا الوجود الحادث كله كالليل ظلمةً؛ لكمال افتقاره إلى موجده، كما أومأ إليه العارف ابن عطاء الله قدس سره في قوله: "نعمتان ما خرج موجود عنهما، ولا بد لكل مكوَّن منهما: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد"؛ فالعالَم مظلم، والأسماء نوره، والله أعلم.

طَرَائِفُ وَمُلَح

- من عادة زوجي إذا اشتريتُ شيئًا لها أو لأولادي أن تدعو قائلة: "ربنا يخليك، وتجيب لنا!"، فقلت لها ذات مرة: ما من دعوة تكون خالصة لوجه الله؟ ما ينفعش "يخليك!"، من غير "تجيب لنا"؟!
- وقالت لي مرة: ما بال وسادتك أصابها النحول حتى التقى طرفاها، وعانق أعلاها أدناها؟! فقلت: لكثرة ما في رأسي من العلم!
- دعوت صاحبي الأديب محمد متولي ذات مرة إلى بيتي، وجلسنا بعد الغداء في غرفة مكتبتي، وهناك حيث تراصت بعض الكتب على المنضدة، انكفأ "طبق الكنافة" رأسًا على عقبْ، من يده على الكتبْ! أخذه انزعاج شديد، فلما أزلنا الكنافة إذا بالكتب نظيفة لم يمسسها سوء، فالتفتُّ إليه باسمًا، وقلت: لا عليك يا مولانا، فكل شيء هنا يعرف قدر العلم!

- في مقرأة القرآن الكريم، أخذ شاب يقرأ من سورة البقرة قوله تعالى:"والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء"، فقرأها: "ثلاثة قرون"، فأخذني ضحك كاد يخرجني عن حد السكينة.

كتب صاحبنا الأديب محمود السيد:

همست في أذني كي أسمع من دون الناس حكايتها! (مشروع قصيدة لعلها تكتمل!)

فأجبته:

فسمعت حكاية أشواق تأبى الأعرافُ روايتَها! (بس يا عم خلصت القصيدة!)

- وفي عيد الأضحى أتاني سائل يقول: إنه لم يجد خروفًا ذَكَرًا للأضحية، فهل تجزئه "خروفةٌ"، يريد أنثى الخروف، فنظمت ليلتها هذه الأبيات:

أتـاني الـيـومَ إنـسـانٌ يقولُ: أجب سؤلي بما حوت النقولُ

إذا مـا لم يجـد أحـدٌ خـروفَـهْ من الذكران، هل تُجزي خروفهْ؟

فقلت لسائلي قـولًا لبيبًا: أجل، واجعل لنا فيها نصيبًا!

التَّنَزُّلُ في مَرَاتِبِ الخِطَاب

ابتدأ نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قومَه بما تقتضيه المشاهدة في الفطرة، فقال:" اعبدوا الله واتقوه"، فما أقام بينهم وبين الله تعالى حجابًا من خلقه، وهذا خطاب للروح، تذكيرًا بالعهد المقطوع في عالم الذر، يومَ "ألست بربكم قالوا: بلى".

فلما عجزوا عن هذا المقام، نزل بهم إلى حجاب الترغيب والترهيب:"يرسل السماء عليكم مدرارًا" الآيات، إلى قوله تعالى: "مالكم لا ترجون لله وقارًا"، وهذا من خطاب النفس.

فلما عجزوا عن هذا المقام أيضًا، مال بهم إلى حجاب التعجيب:"ألم ترو كيف خلق الله سبع سموات طباقًا" الآيات، وهذا من خطاب العقل، وهو آخر المنازل، وخاتمة الحجب، فمن لم يؤمن فيه، عُلم أن الباب دونه مغلق:"وأُوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون"، والله أعلم.

مَلابِسُ الغَرْبِيِّين

مترجمة عن الإنجليزية

قال جاي إيتون ينتقد طريقة الغربيين في اللباس:

"من الشائع جدًّا في الغرب أن يُلبسوا قردة الشمبانزي ملابسَ بني آدم، إما لتسلية الأطفال في زياراتهم لحديقة الحيوان، وإما للإعلان عن سلعة في التلفزيون. وكم تبدو ملابس الغربي المعاصر جميلة على القرود! بينما تبدو أقل حسنًا على جسوم بني آدم، وأما المسلم فتشق عليه الصلاة فيها، ولكن ما الحيلة وقد غدت شارة "التحضر"، كما أن الجندي لا يتحقق من انضمامه إلى الجيش إلا بعد أن يندس في بزته العسكرية، والكاهن لا تستوثق نفسه في وعظه إلا حين تلفه مسوح الرهبان.

لما أراد كمال أتاتورك وماو تسيتنج أن يبتا كل صلة بالماضي، وأن ينشئا جيلًا جديدًا من الترك والصينيين بدءا بتغيير عادات الناس في لباسهم، ومن الشائق أن نذكر بِدارَ الرهبان الكاثوليك إلى التزيي بزي أهل الدنيا حين يعزب عن نفوسهم يقينهم في كهنوتهم.

لا جرم أن أولئك الذين يرون أنفسهم قرودًا ذكية يلبسون كما تلبس القرود، أما أولئك الذين يعتقدون أنهم "خلفاء الله في الأرض" فيلبسون ما يوافق هذه الاعتقاد".

Gai Eaton، Islam and the Destiny of Man، p.223.

أركان الإسلام
إشارات في طي العبارات

قال رسول الله ﷺ: "بني الإسلام على خمس:

- "شهادة أن لا إله إلا الله"، فذكر الغاية.
- "وأن محمدًا رسول الله"، والدليل.
- "وإقام الصلاة"، والحافظ.
- "وإيتاء الزكاة"، فنبه على الصارف.
- "وصوم رمضان"، والمعين.
- "وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا"، لتقع الهجرة إلى الله في ظاهر الحس، كما وقعت- بما مَرّ- في باطن المعنى.

إِتْحَافُ الغَاوي بِشَيْءٍ من النَّحْوِ الفَرنسَاوي

كتبتُ- تظرفًا- إبَّان دراستي اللغة الفرنسية في المركز الثقافي الفرنسي بالمنيرة هذه الأبيات:

عَرِّفْ ب"la" "le" كُلَّ ذي نُكُرِ ... واجمع ب"les" إن كُنْتَ ذَا فِكَرِ

نَكِّرْ ب"une" "un" كلَّ مُفْرَدَةٍ ... والجمع "des" يا صاحِ فادَّكِرِ

وأشرْ إلى الأنثى بقولك: cette ... وأشر بـ" ce" للمفرد الذَّكرِ

وكذاك "ces" ان تبغِ جمهرةً ... فاعلمْ، فهذا صحَّ في الخبرِ

هـذي بـحـقٍّ خـيرُ مَـدرَجـةٍ ... لِلْ"langue" فانْشُدْهَا عَلَى أَثَرِي

المعَانِي الإِشَارِيَّة!

كنت قد نشرت هذا التدبر:

"وما تلك بيمينك"؟

"قال: هي عصاي أتوكأ عليها"

"قال :"ألقها"!

فتولد المعْنى للمُعَنَّى أنِ استبدلِ التوكل بالتوكؤ!

فكتب بعض الأصدقاء: ومن يؤكد ذلك يا صديقي؟

فأجبته:

تؤكده نصوصُ الشَّرع طُرًّا	وذلك لا يغيب عن اللبيب
إذا رُمتَ الخَفِيَّ من المعاني	فَدَقِّقْ في إشاراتِ الحبيب
تجِدْ عجبًا يحار العقلُ فيه	قريبًا في بعيدٍ في قريبِ

فهرس المحتويات